زهرة خفيف

الخطاب والمرجع
مقاربة في المصطلح

دراسة

دار الأوطان

زهرة خفيف

الخطاب والمرجع مقاربة في المصطلح

دار الأوطان

2024

زهرة خفيف

من مواليد الحروش ولاية سكيكدة
متحصلة على شهادة ماجيستير في الادب الحديث والمعاصر من جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
متحصلة علي شهادة الدكتوراه في الأدب الحديث والمعاصر من جامعة باجي مختار . عنابة
أستاذة محاضرة بكلية الاداب واللغات – جامعة 20 اوت 1955 بسكيكدة
صدر لها في الشعر
مملكة بلقيس عن دار الهدى 2013
في البدء كانت حواء عن دار الهدى 2014
الرذاذ والرماد . عن دار الأوطان 2016
تباريح الروح عن دار الأوطان 2016
مقام الهسهسات عن دار الأوطان 2019
رحيق الياسمين عن دار الأوطان 2019
لازب كطين عن دار الأوطان 2020
قطر الندى عن دار الأوطان 2020
وفي النقد صدرلها
التحولات الثقافية في المجتمع الجزائري قراءة في ظاهرة المثاقفة عن دار الأوطان 2024
المنهج السوسيو نقدي مقاربة نظارية عن دار الأوطان 2024
الخطاب والمرجع مقاربة في المصطلح عن دار الأوطان 2024

ISBN: 978-9947-983-91-1
9 789947 983911

الخـــطاب والمـــرجع

مقاربة في المصطلح

زهرة خفيف

الخـــطاب والمـــرجع
مقاربة في المصطلح

دراسة

دار الأوطان

إصدارات دار الأوطان 2024.
ردمك: 978-9947-983-91-1.
الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2024.

جميع الحقوق مخفوضة للمؤلف

الخطاب والمرجع مقاربة في المصطلح/دراسة
زهرة خفيف
الطبعة الأولى
القياس: 19/13
دار الأوطان للثقافة والإبداع
الهاتف: 10 23 67 (213+)
البريد الإلكتروني: darelawtan1@gmail.com

مقدمة

لقد كتب المحدثون كثيرا في (الخطاب) وتخصصت به مؤلفات كثيرة لديهم، إلا أن القارئ في كتاباتهم لا يجد فيها ذلك الوضوح الدلالي الذي ألفيناه عند العرب القدماء لمفهوم الخطاب، إذ لا يلمس الباحث اتفاقاً لدى المحدثين في تعريفهم إياه أو رؤيتهم له على الرغم من كثرة ما كتبوا فيه. فقد تعددت تعريفاتهم لـ (الخطاب) وتشتت آراؤهم فيه وتفاوتت نظرتهم له لدرجة قد تجعل "تحديده من الأمور المستعصية" على كثير من الباحثين. ومن ثم لا عجب في أن نجد بعض من يتعمق بدراسته يقرر أن "لمصطلح الخطاب أعرض سلسلة من الدلالات الممكنة من أي مصطلح آخر". والمتأمل في تلك الرؤى والتعريفات التي سطروها لـ (الخطاب) يجد أنها يسودها الغموض والاضطراب الذي يصل إلى حد التناقض والإبهام أحياناً.

وقد حاول هذا المقال أن يتتبع أهم المؤلفات في هذا المفهوم والآراء التي قيلت فيه، فأجملها فصنفها وبوّبها ثم وقف عندها وقفة ناقدة مُرجّحاً ما رآه الباحث أقرب لحقيقة هذا المفهوم من غيره.

رؤى المحدثين لـ (الخطاب) ومناقشتها:

إن قراءة وئيدة فاحصة في تعريفاتهم (للخطاب) تمكننا من تقسيمها إلى خمسة أقسام نلخصها فيما يأتي:

الأوَّل:

قصره على ما هو منطوق، إذ الخطاب عنده "إيصال المعنى إلى السامع عن طريق الكلام"[1]، ويبدو أنهم يخرجون عن الخطاب ما يوصل المعنى إلى المتلقي إذا لم يكن منطوقا[2]. بل يشترط بعضهم في هذا المنطوق أن يكون أكثر من جملة، إذ يؤكد أن الخطاب "الكلام المنطوق عندما يتجاوز الجملة الواحدة طولاً"[3]، فواضح أن ما لم يتجاوز الجملة لا ينطبق عليه –عندهم– مفهوم الخطاب[4].

وتُثار، هنا، مشكلة كثرت كتابات المحدثين فيها وأحيطت بغموض واضطراب كبيرين عندهم، وهي علاقة مفهوم (الخطاب) بمفهوم (النص) والخلط بينهما عند فريق منهم،

1معجم علم اللغة النظري: 103، وينظر: الهادي في اللغة العربية: 638/1.

2ينظر، الفلسفة واللغة: 157، والخطاب القرآني، دراسة في البعد التداولي: 5.

3المعجم المفصل في علوم اللغة: 300.

4وفي هذا إشارة إلى مشكل آخر زاد من مسألة غموض مفهوم الخطاب عند المحدثين، وهو حدود ما يسمى خطاباً أو حجمه، ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية: 24–25، وفي لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم (بحث): 16-17.

ومحاولة التمييز بينهما عند فريق آخر منهم أصحاب هذه الرؤية التي قصرت مفهوم (الخطاب) على ما هو منطوق، وهم يشيرون بذلك إلى أن ما يقابل الخطاب، عندهم، هو النَّصُ بِعَدِّ الأوَّلِ منطوقاً مُتَكلماً والآخرِ مكتوباً مدوناً[1]

والحق أن الباحث المتأني، في كتاباتهم على كثرتها، لا يصل إلى رؤية واضحة، عندهم، في التمييز بين مفهومي (الخطاب والنص)، بل يجد أن فهم المصطلحين في كتاباتهم يتسم بالغموض ويبعث على البلبلة[2]، إذ يذكرون (للخطاب) ما يوردونه من صفات لـ (النص)[3]، ومن ثم يكون في التمييز بين المفهومين، عند هذا الفريق من المحدثين، نظر. ويبدو أن هذا ما دفع فريقاً كبيراً من المحدثين إلى القول بعدم الاختلاف بين المفهومين[4].

1ينظر تفصيلاً لذلك: إشكالات النص: 26–32، وتحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، 119-120، والتحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج: 28–34، والترابط النصي في ضوء التحليل اللساني للخطاب: 17-29، وعلم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات: 93–107.

2المصطلحات الأدبية الحديثة: 19.

3ينظر: المصدر نفسه.

4ينظر: انفتاح النص الروائي: 10، وتحليل الخطاب العربي المعاصر: 60، والخطاب، سارة ميلز: 20- 22، والخطاب وخصائص اللغة العربية: 21-24، واللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث: 75، والمصطلح السردي: 241، ومعجم اللسانيات الحديثة: 40.

الثاني:

قصره على ما هو مكتوب، إذ يُعرَّف الخطاب بأنه "المكتوب الذي ينتقل من مُرسَلٍ إليه يتضمن عادة أنباء لا تخص سواهما"[1]، وثمة قيد آخر في هذا التعريف لعله أكثر إشكالاً من مسألة قصر (الخطاب) على (المكتوب) فحسب، وهو تحديده لغاية الخطاب بطرفيه (المرسل والمرسل إليه)، ومن ثم عدم شمول الخطاب -أيّ خطاب- لغيرهما، وهذا أمر خطير ينبغي التنبه له وعدم الانسياق وراءه، بل يجب التأني في فهم هذا التعريف، لأنه يوقع من -دون قصد أو شعور أحياناً- في مشكل كبير إذا ما طُبِّقَ على (الخطاب القرآني) يصل إلى حد الإساءة إلى هذا الخطاب المقدس، إذ يقصره على من خاطبهم في لحظة خطابه لهم!، ومن ثم يؤدي إلى الوقوع في كثير من الشبهات التي ينادي بها بعض الباحثين المقلدين لكل غربي من دون وعي أو إدراك أو تمحيص انسياقاً منهم وراء الوافد بغض النظر عما يؤدي إليه أو يوقع فيه[2].

1معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 90.

2ينظر: الخطاب الروائي: 53، والنص والخطاب والحياة: 26–29، وينظر تفصيلاً لبعض هذه الشبهات: المستشرقون والقرآن الكريم: 122–186.

الثالث:

جعله شاملاً للمنطوق والمكتوب، إذ يرى أن الخطاب "كل ملفوظ/مكتوب يشكل وحدة تواصلية قائمة الذات"[1]، بوصفه تعبيراً عن الأفكار بالكلام أو الكتابة[2]، ومن ثم فإن " النص المكتوب هو شكل من أشكال الخطاب[3]، لأن الكتابة هي "التي تعيد صياغة الخطاب الشفوي أو التي تستعيد أسلوبه التعبيري وأغراضه"[4]، إذ بها يتم تثبيت الخطاب الشفوي فتصبح "الكتابة هي التجلي الكامل للخطاب"[5].

ويبدو أن هذه الرؤية أقرب إلى حقيقة مفهوم (الخطاب) من سابقتيها، إذ إن الخطاب الشفوي المنطوق يُسطر بالكتابة وتستحيل المنطوقات فيه إلى كلمات مكتوبة لتحل الحروف المكتوبة المؤلفة الكلمات محل الأصوات المنطوقة المؤلفة للألفاظ، لتكون الكتابة تجلياً للخطاب، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا: إن الخطاب "لا يثبت في الكتابة صوناً له من الدمار وحسب، بل

1الخطاب وخصائص اللغة العربية: 24، وينظر: معجم المصطلحات اللغوية: 135.

2ينظر: معجم السيميائيات: 158.

3نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: 54، وينظر: وتحليل الخطاب: 11-14، معجم مصطلحات نقد الرواية: 88، ونحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي: 20-21.

4الخطاب، سارة ميلز: 23.

5نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: 56، ويقارن بـ: تحليل الخطاب في ضوء نظرية أحداث اللغة: 18.

هو ينزع إليها بعمق في وظيفته الاتصالية"[1]، بِعَدِّ الكتابة تثبيتاً للخطاب الشفوي وناقلاً لأفكاره عبر المكان والزمان[2]. ومن ثم عُدَّ النص المكتوب وثيقة ملزمة ولاسيما في الأمور التي تتطلب استمراراً لمبادئها ونقلاً لهذه المبادئ عبر المكان والزمان لإدامة تطبيقها زيادة على تجاوز ضعف الذاكرة في حفظها[3].

ولعل من نافلة القول أن نُذكِّرَ، هنا، بأن خطاب الله سبحانه لعباده في القرآن الكريم الموحى إلى حبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أولى خطاب بالتدوين والتوثيق وأنزع كلام إلى الكتابة والتحرير، وذلك لأسباب عدة منها أنه خطاب موجه إلى الناس جميعاً في كل مكان وزمان، وأن هذا الخطاب المقدس دستور أراده الله تعالى أن يكون ثابتاً مطبقاً إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4]، ومن ثم فـ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا

1نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى: 59-60.

2ينظر: المصدر نفسه: 60، ودراسات في النص والتناصية: 26-27.

3ينظر: نسيج النص، بحث فيما يكون الملفوظ به نصاً: 12-13.

4 القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية 28.

وَحْـيٌ يُـوحَىٰ﴾[1]، و﴿كِتَـٰبٌ فُصِّـلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًـا عَرَبِيًّـا لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2] في الوقت نفسه

ومن الإنصاف أن يشار، هنا، إلى أن العرب القدماء كانوا مدركين هذا الأمر تمام الإدراك، إذ يطلقون (الخطاب) على آيات الله تعالى (المكتوبة) بين دفتي كتابه المجيد (القرآن الكريم) ويتفقون على أنه خطاب الله تعالى إلى مخلوقاته[3]، إشارة منهم إلى مجيء "النص القرآني على شكل خطاب"[4].

ويشار، هنا، إلى أن بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن كل خطاب يتكون من مجموعة نصوص مترابطة بعلاقات مشتركة[5]، إذ يُبنى الخطاب على موضوعٍ معين لتحقيق غرض الإفهام عند المخاطب[6]. ومن ثم لا يُعَد كل خطاب نصاً وإن كان كل نصل خطابا[7]. على أن بعضهم الآخر يميل إلى إقصاء معيار الحجم عن

1القرآن الكريم، سورة النجم، الآية 4.

2القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية 3.

3ينظر مثلاً: البرهان في علوم القرآن: 2 / 217 – 235، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 1 / 108 - 109.

4بنية النص القرآني: 13.

5ينظر: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو: 269 – 270، والنص والخطاب والإجراء: 6، والنص والخطاب، قراءة في علوم القرآن: 16.

6ينظر: الأسلوبية في النقد العربي الحديث: 44.

7ينظر: الخطاب القرآني، خلود العموش: 24.

تحديد (الخطاب) ؛ ولذا يعد كل نصل أو مركب أو مفردة خطاباً[1].

ويبدو أن القول الأول أوقع في القبول من لاحقه، إذ إن غاية الخطاب -أي خطاب- هي تحقيق التواصل بين طرفيه وإفهام المخاطب ما أراده المخاطب من خطابه، وهذا لا يتم عادة إلا بنصوص مترابطة[2].

ولعل هذا ما دفع بعض العلماء إلى تأكيد "قراءة القرآن الكريم في هيأة نصوص متكاملة"[3] وعدم تجزئة هذا الخطاب المقدس الكريم، لأن تجزئته تحول دون فهمه والوصول إلى تدبُّر معانيه[4]، والحق انه قول سديد.

الرابع:

جعله شاملاً لكل ما يؤدي تواصلاً وتفاهماً، إذ عرف الخطاب بأنه "ضرب من تضافر الإشارات تكون اللغة فيه

1ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية: 24 - 25.

2ينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية: 24، وفي لسانيات النص وتحليل الخطاب، نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم: 16-17، وقضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص: 17-18، والمصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب: 38.

3تطبيق منهج علم اللغة النصي في دراسة القرآن الكريم (سورة البقرة أنموذجاً)، بحث لأستاذنا العلامة الدكتور محمد كاظم البكاء: 3.

4المصدر نفسه: 1.

عنصراً تمثيلياً من بين عناصر إشارية أخرى[1]، والملاحظ على هذا التعريف أنه جعل الممارسة اللغوية سواء أمنطوقة كانت أم مكتوبة مجرد مظهر من مظاهر الخطاب أو أحد عناصر تمثيله، إذ يبدو أنه أراد أن يشمل كل ما ينقل معنى للمتلقي من وسائل وأدوات ويسهم في تحقيق تواصل ما، ومن ثم يمكن أن يعد خطاباً ما تنقله الإشارة أو الصورة أو الحال أو ينقله الرمز أو الإيماء وغيرها من الوسائل التي تحقق التواصل، وهذا قول فيه خلط وإبهام ومن ثم لا يمكن الاطمئنان إليه[2].

ومن الإنصاف أن نُذكِر، هنا، بأن القدماء قد كانوا أكثر دقة وتحديداً وأنضج رؤية وإدراكاً، إذ قصروا أداة الخطاب على (الألفاظ المُفْهِمَة) احترازاً منهم عما قد يؤدي الإفهام والتواصل غير الألفاظ[3]، ويبدو أن هذا أقرب إلى المنهج العلمي في مقاربة حقائق الأشياء، إذ ينبغي -فيما أحسب- عدم الخلط بين الوسائل المختلفة في ماهيتها وتجلياتها وظواهرها.

<u>الخامس:</u> جعله دالا على البناء الفكري "لمقولة كاتب أو أقاويله"[4] الذي يقدم وجهة نظر ذلك الكاتب بإقامة علاقات

1مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو: 143، وينظر: تجديد الخطاب الإسلامي، الشكل والسمات: 13.

2وإن كانت هذه الوسائل قد تؤدي ما يؤديه (الخطاب) من إفهام وتواصل.

3ينظر: بحث للكاتب عنوانه (مفهوم الخطاب عند القدماء).

4الخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية: 11.

معينة بين أجزاء ذلك البناء حتى يشد بعضه بعضاً، أو أحاسيس منشئه ومشاعره[1]. ويبدو أن هؤلاء يعدون الخطاب كياناً لغوياً مقولاً أو مكتوباً على حد سواء غير أن الذي جعلني أعزلهم عن أصحاب القسم الثالث الذي مر ذكره آنفا هو عدم تأكيدهم ذلك صراحة، وكذلك تركيزهم في المضمون الفكري الذي يحمله (الخطاب) لمتلقيه أكثر من عنايتهم بطبيعة أدائه نطقاً أو كتابة. والحق أن القراءة الفاحصة المتأنية تثبت أن جذور هذا التصور غربية فلسفية، إذ يقول الفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو): "يبدو أن الفكر الغربي قد حرص على أن تظهر ممارسة الخطاب كنوع من التفاعل بين فعل التفكير وفعل الكلام، سيكون الخطاب فكرا مكسواً بعلاماته، فكراً جعلته الكلمات مرئياً"[2].

والمتأمل في كتابات أصحاب هذا القسم وفي وصفهم للخطاب يجد ملمحاً مهماً في كلامهم، إذ أشاروا إلى أن الخطاب بناء "يخضع لقواعد معينة تجعله قادراً على أداء وظيفته"[3] في التعبير عن مُراد صاحبه (المخاطب)، وفي الوقت نفسه فإن

1ينظر: الخطاب الإسلامي الحضاري: 16، والخطاب العربي المعاصر، دراسة تحليلية نقدية: 11.

2نظام الخطاب: 25، وينظر: يجب الدفاع عن المجتمع. دروس لفوكو: 14-15 و70-71، ويقارن بكلام (فوكو) عن الخطاب في كتابه: المعرفة والسلطة: 19 - 22.

3الخطاب العربي المعاصرة دراسة تحليلية نقدية: 11.

الخطاب يُفْصِح عن مدى إمكانية صاحبه (المخاطب) في طريقة تشكيل ذلك البناء وتحقيق غرض الخطاب بكيفية التأثير في المتلقي (المخاطب)، إذ فيه تتجلى قدرته على البناء... لتقديم وجهة نظره إلى القارئ بالصورة التي تجعلها تؤدي مهمتها لدى هذا الأخير، مهمة الإخبار والإقناع"[1].

والواقع أن إعجاز الخطاب القرآني المقدس هو حقيقة الحقائق التي ليست بها حاجة إلى تفصيل وتطويل، إذ تم بناؤه من لدن خبير عليم! ونظمت كلماته نظم الدرّ المكنون فجاءت قلائد من البيان المعجز العجيب الذي يأسر القلوب ويأخذ لُبَّ العقول[2]، فبناؤه من السمو ما جعله "فوق مستوى البشر أن يأتي بمثله"[3]، ولذا تحدى هذا الخطاب المقدس البليغ أرباب البلاغة والبيان أن يحاكوا شيئا منه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَأَدْعُواْ شُهَدَآءَكُم

1الخطاب العربي المعاصرة دراسة تحليلية نقدية: 11.

2ينظر: إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب: 14، والإعجاز في نظم القرآن: 62-64، والبيان في تفسير القرآن: 45-48.

3القرآن، ماذا تعرف عنه: 11.

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1]، وما كان لأحد أن يطول محاكاته[2].

ومهما يكن من أمر فالظاهر أن ثمة أموراً شاركت في الخلط والغموض الكبيرين والارتباك الواضح في رؤى المحدثين لمصطلح (الخطاب) وعدم اتفاقهم على معنى محدد له، ويبدو أن الترجمة واختلاف المنطلقات وتباين المناهج وتعدد الاتجاهات التي تدرس (الخطاب)-من تلك الأمور[3].

أولاً: مفهوم الخطاب:

انتشر مصطلح خطاب في الأدبيات العربية في الفترة الأخيرة انتشارا ملفتا للنظر، "والخطاب هو انجاز في الزمان والمكان ويقتضي لقيامه شروط أهمها المخاطب والخطاب والمخاطب"[4]، ويجدّد كيان الخطاب مكونات تعلن عن حدوثه، وهي: الأصوات والمعاجم والتراكيب، والدلالة والتداول، وبالتالي فإن الخطاب

1القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 23.

2ينظر: الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 3 / 219، والنظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي: 11، ودرس العربية وتأسيس الخطاب، المنطلق اللغوي والديني: 103-105.

3ينظر تفصيلاً لذلك مثلاً: المصطلحات الأدبية: 19، والمصطلح السردي: 241، والخطاب، سارة ميلز: 20، وبلاغة الخطاب وعلم النص: 66-67 و88-93، وتحليل الخطاب الأدبي وقضايا الأمن: 26-36.

4 د. نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، ص170.

وجـود فيزيـائي، لأن اللغـة في اعتقادنـا ظـاهرة فيزيائيـة وبنيـة تحكمها علاقات تعلن عن انتهائها إلى كيان لغوي متماسك عبر نسيج من الكلمات مترابطة فيما بينها وتنبئ من خلال ملفوظها عن النشاط الفردي والجماعي والحضاري وبهذا يكون الخطاب ظاما من العلامات الدالة ظاهرا وباطنا.

ورد مصطلح الخطاب في المعاجم العربية ومنها "لسان العرب، ولم يخرج ابن منظور في تحديد مفهوم الخطاب على دلالة الكلام ومعاييره، وهو الضبط الذي يذهب إليه كثير من علماء اللغة قديما وحديثا، يقول ابن منظور: «الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاب، وهما يتخاطبان والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابه، واسم الكلام الخطبة، وذهب أبو اسحاق إلى أنّ الخطبة عند العرب: الكلام المنثور، المسجع، ونحوه،... وفي التهذيب: الخطبة مثل الرسالة لها أول وآخر... "[1].

وورد في (أساس إبلاغه) للزمخشري: "خطب: خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام،... وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خطب... واحتطب القوم فلانا: دعوه على أن

1 د. نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، المركز الثقافي العربي بيروت، 2005، ص171.

يخطب إليهم... وتقول له أنت الأخطب البيّن الخطب فتخيل إليه أنه ذو البيان في خطبته"[1].

وجاء في قاموس اللسانيات لـ: جان دي بوا وآخرين: "الخطاب هو اللغة المحوّلة إلى نشاط، وهو اللسان المسخر من قبل الناس المتكلمة، والخطاب مرادف للكلام"[2]. وهذا التعريف لا يكاد يختلف كثيرا عما ذهب إليه ابن منظور في (لسان العرب) بأن الخطاب هو الكلام ولا يمكن أن يقوم الخطاب دون الكلام وتحدث جان دي بوا عن مفهوم الخطاب بأنه: رسالة، أو هو مثل الرسالة لها أول وآخر، وهذا تعريف يخص شكل الخطاب وبناءه.

ولفظ الخطاب من حيث معناه اللّغوي يدل على كل ملفوظ أكبر من الجملة، منظور إليه من حيث قواعد التسلسل الجملي ومن جهة نظر اللسانيات، فإن الخطاب لا يمكن أن يكون سوى مرادفا للملفوظ، فإلى جانب التعريف الكمي والبنائي عرف الخطاب بالوسيلة الأساسية في إنشائه، وهي الكلام وعرف بخاصيته الملازمة لوجوده كونه ملفوظا.

1المرجع نفسه، ص171.

2المرجع نفسه، ص171.

وبديهي أن مفهومنا لمصطلح (خطاب) في هذا السياق يبتعد عن مفهومه الشائع في أذهان العموم، وهو أنه (أي الخطاب) الكلام الذي يلقيه شخص ما على جمهور من المستمعين وعادة ما يكون هذا الشخص مسؤولا أو مقدما على الجمهور بصورة أو بأخرى.

ولا يخفى أنه بمعناه هذا أصبح مرادفا لمصطلح آخر هو (خطبة)، فكلتا اللفظتين تطلق على كلام الخطيب فهما إسمان لهذا الكلام، إلا أن" كلا منهما ارتبطت بمواقف معينة، وإذا كانت لفظة "خطبة" أوسع انتشارا وأكثر استعمالا في التقاليد الخطابية العربية، نظرا لمكانة الخطابة في المجتمعات العربية والإسلامية كأداة أساسية من أدوات التواصل والتبليغ، فإنها تتراجع الآن مفسحة المجال للفظة (خطاب) للدلالة على المعنى ذاته، مكتفية بتأطير بعض الممارسات في بعض المجالات دون البعض الآخر (كالمجال الديني مثلا: خطبة الجمعة، خطبتا العيدين).

مفهوم الخطاب في الدراسات الغربية الحديثة:

إن المفهوم الذي نستعمله لمصطلح خطاب في هذا المقام، هو مفهومه الحديث الذي أنتجته الدراسات اللغوية والتحاليل النقدية الأدبية الحديثة، وهو موضوع الصفحات

اللاحقة إذ بعد الإحاطة بالتعاريف المختلفة، نحاول من جهتنا صياغة تعريف له يؤلف بين التعاريف السابقة ويأخذ منها أهم ما فيها، نتطرق إثرها إلى الخطاب السياسي، وخصوصيته وأنماط تحليله، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا المصطلح مأخوذ مثل غير، من المصطلحات الكثيرة من الغرب، وكذلك تحديد مفاهيمه المثبتة هنا والتي اعتمدنا عليها في صياغة التعريف المقترح المصطلح.

ظهر مصطلح (خطاب) في حقل الدراسات اللغوية في الغرب ونما وتطور في ظل التفاعلات التي عرفتها هذه الدراسات ولا سيما بعد ظهور كتاب (فرديناند دوسوسير): "محاضرات في اللسانيات العامة، الذي تضمن المبادئ العامة الأساسية التي جاء بها هذا الأخير، وأهمها تفريقه بين الدال والمدلول، واللغة كظاهرة اجتماعية والكلام كظاهرة فردية"[1]، وبلورته لمفهو (نسق) أو (نظام) الذي تطور فيما بعد إلى بنية.

ونظرا لتعدد مدارس واتجاهات الدراسات اللسانية الحدثية فقد تعددت مفاهيم ومدلولات هذا المصطلح فورد بعضها فيما يلي:

1إبراهيم صحراوي، في مفهوم الخطاب والخطاب الأدبي، مجلة الكتاب العربي، عددان (51-52) حزيران 2001م، ص144.

خطاب مرادف المفهوم السوسيري (كلام)، وهو معناه المعروف به في اللسانيات البنيوية، والخطاب مادام منسوبا إلى فاعل، وحده لغوية تتجاوز أبعادها الجملة، رسالة أو مقولة وبهذا المعنى يلحق الخطاب بالتحليل اللساني لأن المعتبر في هذه الحالة هو مجموع قواعد تسلسل وتتابع الجملة المكوّنة للمقول. وأول من اقترح دراسة هذا التسلسل، هو اللغو الأمريكي سابوتي زليق هاريس[1].

ويتحدد مفهوم الخطاب في المدرسة الفرنسية لدى مقابلته بمفهوم المقول، و(المقول) هو تتابع جمل مرسلة بين فراعين معنويين، بين توقفين للعملية الإبلاغية، أما (الخطاب) فهو المقول، منظرا إليه من زاوية الميكانيزمات الخطابية المتحكمة فيه أو المكيفة له، وهكذا فان نظرة إلى النص من حيث كونه بناء لغويا تجعله منه مقولة أما البحث في ظروف وشروط إنتاجه فتجعل منه خطابا والخطاب حسب (بنفينيست)، هو كل مقول يفترض متكلما ومستمعا، تكون لدى الأول نية التأثير في الثاني بصورة ما[2].

1 المرجع نفسه، ص144.

2إبراهيم صحراوي، في مفهوم الخطاب والخطاب الأدبي،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 2007، ص144.

ويمكن إضافة مفهوم آخر للخطاب بمقابلته بمفهوم اللغة، كمجموعة متناهية من العناصر، مستقرة نسبيا فيكون الخطاب عندئذ مجالا للإبداع، تتشكل فيه وبطريقة غير ملحوظة، سياقات تعطي قيما جديدة للغة. وهكذا فإن تعدد معاني لفظة ما، صنع خطابي يتحول بالتدريج إلى ظاهرة لغوية والواضح أن الإبداع هنا يمارس على الرصيد اللغوي. فتكون القيم الجديدة متمثلة فيما يضاف إليه من ألفاظ جديدة أو استعمالات متكررة لألفاظ سابقة في مقامات وسياقات جديدة أيضا يفرضها التطور الطبيعي للحياة، وما تستلزمه الاحتياجات التعبيرية المتشبعة للفرد التي تتسع باتساع الاكتشافات العلمية وغير العلمية في مختلف الميادين، وتتعقد بتعقد علاقاته بغيره من العوامل المكونة لمحيطه في مختلف المستويات. وعادة ما يصدر هذا الإبداع عن الأدباء والفنانين والمفكرين والكتاب في كل المجالات، وكذا رجال السياسة والشخصيات العامة أي أن الإبداع في المجال اللغوي لا يأتي إلا عن طريق أولئك الذين بإمكانهم التأثير على الرأي اللغوي العام[1]، وتوجيه المتحدثين بهذه اللغة أو تلك، هذه الوجهة أو تلك الأخرى وعادة ما يتجاوز المدى التواصلي التبليغي لهذه الجهات المحيط الاجتماعي المهني الضيق ليمسّ شرائح وطبقات

1المرجع نفسه، ص141.

اجتماعية مختلفة. ويعطي بعضهم للخطاب معاني أخرى، لما يجعل منه مرادفا لـ (النص) أو (المقول)، ومن هؤلاء (الجيرداس جوليان غريماس) على أن استعمال هذا الأخير للنص كمرادف للخطاب، ليس من باب التبسيط كما يرى بعض الدارسين، لأن غريماس إذ يفعل ذلك إنما يستند إلى اشتراك فعلي للفظتين "ترادف في أداء المعنى ذاته. فبعض اللغات الأوروبية لا تتوفر على لفظ يقابل لفظتي (Discourse) الفرنسية، و(Discours) بالإنجليزية ويشير إلى أن (خطاب) و(نص) تستعملان تبعا لذلك للدلالة على ممارسات خطابية غير لغوية كالأفلام و الطقوس المختلفة والقصص المرسومة"[1].

وهكذا نرى أن مدلولات المصطلح تتعدد لكنها لتتعارض في تعاريفها المختلفة له بأنه ممارسة لملكة اللغة، غير أنها تختلف في زاوية النظر إلى هذه الممارسة، بمعنى أن الاختلاف لا يمس مضمون اللفظة، بل يمس شكل الذي تؤدي هذه اللحظة.

وانطلاقا من هذا التعدد يوم التساؤل عن الدلالة التي يأخذها مصطلح (خطاب) في هذا البحث، وهو ما في هذا السياق "كل مجموع له معنى، تعليمي، سينمائي، رسمي"[2]، وتختلف أبعاد هذا المجموع من حالة إلى أخرى، فقد يكون جملة واحدة،

1المرجع نفسه، ص145.

2إبراهيم صحراوي، في مفهوم الخطاب والخطاب الأدبي، ص145.

أو فقرة، أو نصا يتكون من فقرات متعددة كما تختلف أشكاله ومضامينه ومجالاته الدلالية، وهو في كل حالة يخضع لقواعد وقوانين خاصة تنظمه، على أنه يجب إدراج هذا المجموع أو البناء ذي الدلالة، في سياق تبليغي، يفترض قطبين تجري بينهما العملية، سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة، مع كل ما يستلزمه التبليغ من تقنيات ظاهرة آم خفيه، عمدية أو عفوية، مما يلجأ إليه المرسل لتأمين بلوغ مقصوده إلى المتلقي بأكبر قدر ممكن من الوضوح والمفهومية والمقبولية، أي أنه يعمل على ضمان أقصى حد ممكن من المقروئية لخطابه.

والخطاب بهذا المعنى رسالة تندرج في العالم الثقافي الذي ينتمي إليه مرسلها، وتعمل كل القيم، جمالية كانت أو اقتصاديه أو سياسية أو دينية أو تراثية أو ما إلى ذلك مما يدخل في تركيبة عالم ثقافي معين.

وهكذا يمكن القول عن الخطاب العربي المعاصر، بكل تفرعاته المضامينية، وتجلياته الشكلية أنه يحمل على مقومات الواقع العربي ومكوناته، من قيم ومبادئ وأفكار تتوزع على محورين: عمودي يمثل كل ما تراكم منها على مر العصور، وهذا ما نسميه عموما بالتراث، وأفقي قوامه كل ما يتفاعل على الساحة العربية في الظرف الراهن من اتجاهات ومذاهب

وتيارات محلية وأجنبية شرقية وغربية، ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى الخطاب الإقليمي، وهو الذي يعكس واقع القطر أو البلد الذي ينتمي إليه هذا الخطاب، وهذا من خلال مجالاته الموضوعية المضامينية، كالأدب مثلا، أو الاقتصاد أو الدين أو السياسة، أو الإعلام أو الاجتماع، أو الفلسفة أو غيرها من المجلات في مختلف نواحي الحياة ذلك أنه كلما اتسع الفضاء وتعددت المضامين وكثرت النصوص كلما كانت فرص الإحاطة الجيدة بالخطاب كثير.

ثانياً: أنواع الخطاب:

1- الخطاب السياسي:

تعد دراسة الخطاب السياسي من الدراسات الحديثة في مجال العلوم، وتواجه هذه الدراسة إشكاليات عديدة، سواء على المستوى النظري أو المنهجي، وكثيرا ما يستغرق من الباحثين الجهد خاصة في مجال الأدبيات، لأن الحالة الفكرية والذهنية جد شائكة ومعقدة، هذا لاعتبار أن الخطاب السياسي إنتاج فكري وذهني، وما يزيد الأمر تعقيدا هو كون التيارات الدراسية في مجال الخطاب السياسي متغيرة ومتضادة وهو ما جعل درس الخطاب السياسي متضخما بشكل واضح وأوجه الاختلاف فيه أكثر من أوجه الاتفاق

الخطاب السياسي من الخطابات الحجاجية المنتشرة بين فئات المجتمع بمستويات مختلفة، وفي سياقات متعددة، ويتوخى في العادة إحداث التأثير وممارسة الإقناع، تبعا بشروط تداوله

يعد الخطاب السياسي حقلا للتعبير عن الآراء واقتراح الأفكار والمواقف حول القضايا السياسية التي تهم شؤون الدولة وتنظم العلاقات بين الحاكم والم

نعتبر خطابا سياسيا، إذا صدر عن رجل سياسي لغرض سياسي، مما يبرر دراستنا له، على أنه تواصل سياسي، مما يبرر دراستنا له، على أنه تواصل سياسي سواء من منظور اجتماعي لأنه يوظف قنوات وشفرات خاصة، أو بمساعدة التحليل للرسائل اللسانية نفسها[1]. وهذا ما يقول به (Fageur) الذي أراد أن يسمّي: "كل نوع من النظام السياسي على أنه طريقة لتنظيم التواصل والحياة السياسية"[2]. فظاهرة التواصل السياسي

1كريستيان بايلون، الخطاب السياسي، تعاريف وأنماط التحليل، ترجمة لبوخ بوجملين، جامعة ورقلة، مجلة الأثر (تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ورقلة)، عدد ماي 2004م، ص183.

2 Fageur، Politics and Communication، little pronoun،1996، P 230.

ترتبط في مجملها بالإيصال الجديد للرسالة المبثوثة عادة، من باث ذي مكانة مرموقة سياسيا إلى الشعب[1].

يحمل أي خطاب سياسي معاني ومضامين تعبر عن آراء وتصورات وتوجهات معينة الاجتماعية وبذلك يعرف الخطاب السياسي "بأنه منظومة من الأفكار تشكلت عبر تراكم المعرفي نابع من استقراء للواقع بكل مكوناته الثقافية والاجتماعية والسيكولوجية، وتمحورت عبر انساق ايديولوجية مستمدة من التصورات السياسية المنبثقة من التراث أو من الحداثة التي تختلف في آلياتها ونظمها حسب مستوى النضج الفكري والوعي بمتطلبات المجتمع ومدى ارتباطها بمستوى الأداء الحركي في عملية التغيير والتنمية والحضور الوجودي"[2]، وبالتالي فإن الخطاب السياسي بهذا المفهوم يعتبر حلقة وصل بين الحاكم والمحكوم إذا كان موجها للداخل، أو بين الحكومة (الدولة) والعالم الخارجي في ما يتعلق بالشأن الخارجي، لذلك عنده يترجل السياسي ويخاطب الأمة والعالم من حوله فهو لا يعبر عن آراء شخصية بحتة بقدر ما هي تصورات رسمية لما يدور حوله من أحداث وكيفية فهمه لها، وغالبا ما ينعكس ذلك من

1كريستيان بايلون، الخطاب السياسي، تعاريف وأنماط التحليل، ص83.

2د. حمدي حسين، الرؤية السياسية في الرواية الواقعية في مصر، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ط1، 1994م، ص30.

خلال ما تتخذه الحكومة من قرارات تسعى إلى تنفيذ بالوسائل الممكنة أي سياسة الدولة العامة أو سياستها الخارجية[1]. من هذا نستطيع القول بأن الخطاب السياسي يجب أن يكون مرتبطا بالواقع السياسي والاجتماعي المعاش أي أن يرتبط بالممارسة السياسية أو الفعل السياسي الذي يتمحور حول إدارة شؤون المجتمع من خلال علاقة السلطة الإلزامية فيما يتعلق بقيم وعوائد المجتمع، كي يحصل على الشرعية المطلوبة والخطاب السياسي يجب أن يرتبط بالفعل، الذي يتمحور حول إدارة شؤون المجتمع، وعملية التغيير بحد ذاتها تحتاج إلى مقومات تتفاعل في ما بينها لتحقيق الهدف، ولا يمكن لهذه المقومات أن تعمل منفصلة، لأنها ستفقد مرتكزاتها في الصيرورة، فالعملية السياسية لا يمكن أن تنمو وتتكامل من دون أن يكون هناك نمو ثقافي واجتماعي وتربوي وإذا ما انفصلت عراها فإن الإنزياحات في المسار والتصور تؤدي إلى حدوث أزمة، والاختلاف النوعي في الأداء يؤدي إلى أزمة، والازدواجية في المعايير تؤدي إلى أزمة والتناقض في السلوك والخطاب يؤدي إلى أزمة والاستمرار في الانزياحات تؤدي إلى تكثيف الأزمة واشتدادها مما يؤدي إلى تفاقمهما[2].

1المرجع نفسه، ص15.

2المرجع نفسه، ص82.

وسمات الخطاب السياسي للنظام المباد، كانت تخضع لانزياح أدائية ما بين لغة الخطاب ومستوى الأداء، وهذا ما دفع إلى حدود شرخ في العلاقة البنيوية بين المنظومة السياسية والقاعدة الجماهيرية، لأن الخطاب السياسي المؤدلج بثقافة طوباية فنطازية، لا تمت بصلة إلى الواقع، ويتكئ في طروحاته على آلية عميقة هي (النمذجة القهرية)[1]... مما دفع بالمتلقي إلى المقارنة بين النموذج الحقيقي الذي يعبر عن هويته، والنموذج الانفصامي الذي يزيد من تشتته، فضلا عن قيامه بتفكيك الخطاب السياسي وإعادة صياغته بمنظور الواقع ومنظور التراكمات الإستمنولوجية المستمدة من التاريخ والفكر المعاصر، مما دفع بسلطة الخطاب إلى البحث عن آليات قمعية لتفادي الفجوة في خطابها، بل والأذكى من ذلك إضفاء طابع القداسة عليه ولكن الخطاب السياسي للنظام المباد تمركز حول ذاته، وفقد صيرورته، بل فقد أبسط عوامل صيرورته سواء في التأثير في الآخر أو في تشكيل هوية، وكان ذلك سببا في نكوص السلطة الخطابية، أما اليوم، وبعد عملية التغيير التي حصلت في المجتمع العربي، وانفتاحه على المجتمع العالمي بكل معطياته الفكرية والثقافية والسياسية مما أدى إلى

1حسين مروة، علاقة السياسي بالأديب في المجتمع العربي، مجلة الموقف الأدبي، سوريا دمشق، اتحاد كتاب العرب، العدد 171، 1985م، ص20.

ظهور لغة جديدة للخطاب السياسي المتمثل بالعقلانية والواقعية والشفافية والعلمية، ويستمد مقوماته من المنهج الديمقراطي، فكان تأثيره بالغا في المتلقي، وإن كان على صعيد الواقع يحتاج إلى تمثيل حسي إيقوني ليتسنى له تحقيق أقصى فاعلية في تنمية الوعي بالتغيير لأن التحدي ليس حالة طارئة أو رد فعل سوسيولوجي تجاه المتغيرات السياسية، بل إنه منظومة من المتراكمات القبلية والطائفية والثقافة[1]، لأن التغيير يشكل تنفسا للبعض وتهميشا للبعض الآخر، فالذي يؤمن بالتحوّل الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان يرى بأن مجريات التحوّل تعكس تصوراته المستقبلية ومتطلباته الإنسانية، والذي يرفض هذا المنهج ويعاني من النزعة الليبيدية تجاه السلطة، وهي نزعة الأنا ورفض الآخر نزعة التسلط والهيمنة السادية على المجتمع، نزعة الإقصاء والتكفير، لذلك لا بد من قراءة الأحداث قراءة حقيقية وتفكيك البنية الثقافية والتربوية وإعادة تشكيلها على وفق المنظور الإنساني ضمن الخطاب الإسلامي الحقيقي. والمنظور الديمقراطي والسعي إلى تقريب المشتركات، وإعادة بناء الهوية الحقيقية للمجتمع من خلال الخطاب السياسي والاجتماعي، وترسيخ سلوك المواطنة من خلال الخطاب الثقافي والتربوي، وهذه الأفكار تبقى أضغاث

1المرجع نفسه، ص18.

أحلام، إن لم تكن لدينا حكومة قوية، نشرك فيها كل قوى المجتمع، ويجب أن يشعر المواطنون بقوه القانون لأنهم سيشعرون بوجود مؤسسة الدولة، فيعرف المواطن أين يضع رأسه وأين يضع قدمه، ولا بد من جهاز تربوي يشكل السلوك الديمقراطي، وجهاز ثقافي ينمي الوعي بحقوق الإنسان، وأن يكون للمثقف في دور بارز تجاه المتغيرات من خلال خطابه النقدي ودوره الفاعل في ترسيخ آليات الديمقراطية، فعّال يقتصّ من الجناة والعتاة، وكل الذين يسعون إلى زرع الفتنة ووضع العصا أمام عجلة العملية السياسية والديمقراطية.

إنّ الخطاب السياسي إذا كان يعتمد في طروحاته على النزعة المثالية سيكون خطابا يوتوبيا أفلاطونيا يفتقد للواقعية، وإذا كان براغمتيا ميكافيليا، فسيكون مزدوج المعايير، انتهازيا، يدس السم في العسل، والخطاب السياسي الحقيقي هو الذي يجسد مقولاته في الواقع، وهو الذي يتعامل مع الحقائق بوضوح وشفافية، وهو الخطاب المتوازن في منطلقاته وتصديه للأزمات... وبذلك فهو اللغة التي يفهمها الجميع ويصغي لها كل الناس، لأنهم يجدون ضالتهم فيها.

تحليل الخطاب السياسي:

وتحليل الخطاب السياسي، هو أن نستظهر العناصر اللسانية الممثلة في مقاربات ملفوضية، وتحويل كل ما هو باطن إلى ظاهر دون المساس بالبناء الأصلي للنص... لأن الخطاب قبل كل شيء هو تبادل مشترك، وهنا نهتم بالبعد التداولي، بمعنى بوظيفة وتوجيه الرسالة تجاه الآخر، والفعل والتأثير على المتلقي، وهي دراسة تتأرجح بين أسئلة ثلاثة تكون الإجابة عنها هي الوصول إلى المعنى اللساني اللغوي وهي: من يتكلم ولمن؟ عن ماذا يتكلم؟ وكيف يتكلم؟ وهذا لغرض معرفة صوره الباث والمتقبل كما يظهران في النصوص، وللوقوف على العلاقات المشتركة في الرسالة التي تعكس المحتوى.

وتحليل الخطاب أيضا هو اقتحام وفض لمشكلة المعنى والدلالة لسياق الموقف، واقتحام للمتكلم الذي هو شرط من شروط إنتاج الخطاب، والخطاب هو سلوك اجتماعي: في حدود معينة، أين يتموقع المتكلم الباث كنتاج اجتماعي.

وتحليل الخطاب أيضا وهو اقتحام وفض لمشكلة المعنى والدلالة لسياق الموقف، واقتحام للمتكلم الذي هو شرط من شروط إنتاج الخطاب، والخطاب هو سلوك اجتماعي: في حدود معينة، أين يتموقع المتكلم الباث كنتاج اجتماعي فدور الفرد

داخل البنية اللسانية لا ينفصل عند المكانة التي يشغلها في هياكل محددة لتكوينه[1].

هذه المقاربة اللسانو-اجتماعية في تحليل الخطاب، تقوم على انخراط مستوى خطابي نظري (آليات شكلية) والمعطيات المؤسساتية (ظروف الإنتاج)، هذه الطريقة محل التفكير والمتمثلة محل التداخل بين الخطاب والمجتمع والتي في أغلب الأحيان، وبواسطة المعطيات الماركسية، تعكس المجتمع كقاعدة صلبة (الاقتصاد، الطبقات الاجتماعية) وتحقق كيفيه القول، مجموع ظروف التعلقات الملفوظية المرتبطة بالخطاب السياسي، فهي تدمج في التطبيق الخطابي (التكوين الخطابي)، وهو عبارة عن مجموعة قواعد تاريخية غير معروفة، والمحددة دوما في الزمان والفضاء، والمعرفان في فترة معينة وفي مرحلة اجتماعية واقتصادية وجغرافية أو لسانية معينة شروط الممارسة الوظيفية الملفوظية[2]، ومادام الخطاب السياسي مشكل من كلمات فإن تحليله يبدأ بالمقاربة المعجمية، ولأنه ينطلق من تركيبة عادية وعلاقة فورية بين انتمائه إلى السياسة والمفردات، ويتأسس على فكرة (كلمة ورسم)، ومفهوم ازدواجية العلاقة بين الدال والمدلول، مما يساعد بتسجيل الحضور

1حسين مروة، علاقة السياسي بالأديب في المجتمع العربي، ص184.
2 المرجع نفسه، ص188.

لـنفس المحتـوى الفكـري للـنص السياسـي كلمـا بـرز الـدليل، وعمليـة التحليـل المعجـمي للـنص السياسـي يسـتدعي عمليـة إحصاء معجمية، والمقاربة المعجمية لا تمس إلا جهة محددة لوظيفـة الخطـاب[1]. إضـافة إلى أن المصـطلح السياسـي وفي جـوهره لفـظ مطـاط وزئبقي، لفـظ مسـتعد لكل الاسـتعمالات، محجوز، وموجه وفق استراتيجيات مختلفة للخطاب وكذا كلمة ديمقراطية الـتي تسبح دون بوصلة في القيم والمتناقضات الـتي تعطيها أهداف حرة وشعبية.

وبالتـالي فـإن هـذه الدراسـة ستسـاهم في الكشـف عـن مكونـات الخطـاب السياسـي كحلقـة مـن مجموعـة حلقـات متشـابكة، داخـل نظريـة التواصـل وكيفيـة وضـعه في سـياقه الـدلالي كنظام لغـوي حامل لـدلالات تهدف إلى وضع المتلقي في موقـع المسـتفهم عـن طبيعـة الرسـالة الموجهـة إليـه، وكيـف يموقـع نفسـه في مواجهة الغموض الـذي يلف العلاقة بينه وبين الباث.

وهكـذا يتضـح أن الخطـاب السياسـي لا يوظـف الإطفـاء أبعـاد سياسـية على الرواية فحسـب، وإنما يسـتعمل أيضـا لغـة جماليـة، وهي تشـكيل الشخصـية الروائيـة وإبـراز خصوصـياتها

1المرجع نفسه، ص185.

النفسية والفكرية، وبهذه الكيفية يسهم الخطاب السياسي في تشييد البناء الفني للرواية ككل.

مؤشرات الخطاب السياسي:

تتنوع مظاهر الخطاب السياسي تبعا لشروط التداول وتنوع الحوامل، فتتجلى في كتابات تنظيرية أو دعائية أو في تجمعات وحملات، وبذلك تتوسل بمختلف وسائل الاتصال المتاحة.

خصائص الخطاب السياسي:

- عرض قضية خلافية وإبراز موقف المتكلم منها.
- ارتباط القضية بالمجتمع والدولة وإبراز حقوق المواطنين وواجباتهم
- السعي إلى الدفاع عن الموقف وإبطال نقيضه
- اعتماد اساليب الاستدلال والبرهنة قصد تحقيق الإقناع
- تنوع أساليب الاستدلال: المنطق، اللغة
- بساطة اللغة وتقريرها وخلوها من التعابير البلاغية
- اعتماد الأسلوب الخبري وصيغ الوجوب
- خطاب إقناعي يتوسل بالحجاج المتنوعة، وتتضافر فيه الوسائل اللغوية والمنطقية ومكونات تعبيرية أخرى موازية

للتواصل، كالصورة والموسيقى ولغة الجسد اعتماد الإخبار ونشر الفكرة السعي إلى التأثير في المتلقي، ودفعه إلى الاعتقاد بصدق الدعوى التصرف وفقا لها.

2- الخطاب الإشهاري:

الاشهار لغة: من فعل أشهر يشهر، بمعنى اظهر واشاع ونشر الشيء (أشهر سيفه، أشهر الزواج...)، الاشهار اصطلاحا: شكل من اشكال التواصل الحديث، فهو خطاب تواصلي بين مرسل ومستقبل ويحضر بقوة في المجال الاقتصادي، بغية ترويج المنتوجات والرفع من المبيعات، كما يحضر في مجالات أخرى كالسياسة والفكر وغيرهما.

الإشهار ظاهرة حضارية مرتبطة بالإنسان باعتباره كائنا اقتصاديا، يلزمه البحث عن الأساليب التي تمكنه من تسويق منتجاته وابتياع مستلزماته من البضائع والخدمات في سو تطبعه الوفرة والتنافس المترتب على هذه الوفرة.

فالإشهار إذن وليد ظروف اقتصادية تزدهر فيها التجارة، وتجعل التاجر أو المنتج في حاجة إلى البحث عن الوسائل والأساليب التي تمكنه من بيع بضاعته أو خدماته للغير.

إنه عملية بيع من شخص أو جماعة لمشتر قد يكون أيضا فردا أو جماعة، لكن مجال عمله ينحصر في نقل الخبز وخلق المناخ لاستقبال وقبول المنتوج الذي يتم الإعلان عنـ

الخطاب الإشهاري هو نوع من أنواع الخطابات المستخدمة في العديد من المجالات سواء الإعلامية، أم التجارية، أم التعليمية، ويساهم في توضيح العديد من الأشياء التي لم تكن معروفة عند الأفراد المستهدفين من هذا الخطاب، ويعرف الخطاب الإشهاري أيضا بأنه نص مكتوب، أو مجموعة من الفقرات التي يحفظها فرد ما من أجل أن يلقيها على مسامع أفراد آخرين، ويعزز الخطاب الإشهاري القيم المرتبطة به كالقيم الاجتماعية، والأخلاقية، ويجب أن يعتمد هذا النوع من الخطابات على التقيد بقواعد الإلقاء اللغوي السليمة حتى يتمكن من تحقيق الأهداف المرتبطة بالخطاب الإشهاري بشكل صحيح.

خصائص الخطاب الإشهاري:

- يصنف كأسلوب من الأساليب التوضيحية المستخدمة في التعريف بالأشخاص، والسلع، والخدمات، وغيرها من الأشياء الأخرى التي تفيد الناس.

- يعتبر وسيلة من الوسائل المستخدمة في الحديث عن شيء ما، عن طريق توضيح كافة التفاصيل، والمكونات الخاصة به.
- يشمل كافة الوسائل الإعلامية المستخدمة في الإعلانات التجارية المرئية والمسموعة.
- يعتمد على استخدام الأدوات التي تعزز من نص الخطاب الإشهاري كالصور، والأصوات.
- يعد طريقة من الطرق المستخدمة في الاتصال مع الجمهور، أو الأفراد من أجل إرسال فكرة، أو توضيح معلومة معينة.

أنواع الخطاب الإشهاري:

الخطاب الإشهاري الأولي:

هو الخطاب الإشهاري الذي يستخدم في التعريف بشيء جديد غير معروف من قبل، وعادة لا يحتوي على كافة المعلومات المتعلقة بالموضوع الرئيسي للخطاب، وذلك من أجل تحفيز الأفراد للاهتمام بمتابعته لمعرفة كافة التفاصيل الأخرى. والهدف من هذا النوع من الخطابات زيادة استهلاك، أو استخدام الأفراد للشيء المرتبط بمضمون الخطاب.

الخطاب الإشهاري التذكيري:

هو الخطاب الذي يذكر الناس بسلعة، أو خدمة معينة، وخصوصاً في حال معاناتها من تدهور اقتصادي مرتبط بقلة الطلب عليها، فتسعى الشركة المنتجة إلى استخدام الخطاب التذكيري كوسيلة إعلانية من أجل تذكير الأفراد بضرورة، وأهمية هذه السلعة، أو الخدمة، وقد يتضمن هذا الخطاب مجموعة من العروض الجديدة التي تساهم في المساعدة على زيادة الطلب مجدداً.

الخطاب الإشهاري التنافسي:

هو الخطاب الذي تستخدمه كافة الشركات، والمؤسسات التجارية، والخدمية التي تعمل في مجال واحد، كالشركات التي تقدم خدمات الاتصالات، أو التي تنتج المشروبات الغازية، فتسعى هذه الشركات إلى استخدام خطابات تحتوي على مميزات تنافسية، والهدف منها المحافظة على العملاء الحاليين، وجذب عملاء جدد.

الخطاب الإشهاري المقارن:

هو الخطاب الذي يساهم في تعزيز دور الخطاب التنافسي في سوق العمل، والهدف منه وضع مقارنة بين السلع، والخدمات التي تعمل في مجال متشابه، مثل: الإعلانات التجارية

التي تهتم بمساحيق الغسيل فتقارن الشركة مدى كفاءة وفاعلية المسحوق الخاص بها، مع المساحيق التجارية الأخرى.

أهداف الخطاب الإشهاري:

يهدف الخطاب الإشهاري إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، وهي:

- تأمين الدعاية اللازمة من أجل الحصول على المستهلكين والعملاء المناسبين لنجاح تقديم الخدمات أو بيع السلع التي تنتجها الشركة، وتطرحها في الأسواق.
- المساهمة في تخفيض تكاليف الإعلان، من خلال صياغة مجموعة من الأفكار المستحدثة التي تساعد على استقطاب المستهلكين بالاعتماد على العديد من الوسائل الحديثة والإبداعية في التسويق للمنتجات.
- الاستعانة بآراء المدراء والخبراء في مجال التسويق والإشهار مما يساهم في وضع الخطط الاستراتيجية المناسبة لتطبيق الخطاب الإشهاري، والمساعدة في تحقيق هدفه.
- دعم تطور المؤسسات والشركات، وإنشاء مجموعة من التحالفات بينها يساعد ذلك في زيادة حجم الاستثمارات، وتطوير الأداء الوظيفي لها الذي ينعكس إيجابيا على نسبة طلب المستهلكين للسلع والخدمات.

- تعزيز مصداقية الشركة في ظل المنافسة مع الشركات الأخرى، لأن الخطابات الإشهارية عموماً تستمد الدعم الخاص بها من خطط العمل التي يتم التخطيط لها مسبقاً خلال فترة زمنية معينة، فعندما تعلن الشركة عن أفكار حقيقية وقابلة للتطبيق، عندها تستطيع النجاح في عملها.

كما يهدف الخطاب الاشهاري الى اقناع المتلقي بجودة منتوج ما، وخلف ذلك غاية خفية، تتمثل في الرفع من سقف المبيعات الى اعلى المستويات، مما يعني تحقيق أكبر قدر ممكن من الارباح. من خلال هاته الصورة، يتبين ان الخطاب الاشهاري يتركب من مكون لغوي الذي يتكون من مجموعة من الكلمات والجمل ذات الايحاء الذي يغري بالشراء ثم المكون الايقوني (الصورة) وتكاملهما معا يؤدي الى تحقيق الوظيفة الاشهارية كما نلاحظ غياب المتكلم في هذا الخطاب لأن الاهم هنا هو المنتوج بغض النظر عن شخصية المستشهر.

الحجاج في الخطاب الاشهاري:

الخطاب الاشهاري خطاب اقناعي، لذلك يعتمد على:

اساليب حجاجية:

للشرح والتفسير نذكر منها:

- اسلوب المقارنة: مثلا مقارنة قبل استعمال المنتوج وبعد استعمال المنتوج.
- اسلوب التعريف: شرح المنتوج.
- اسلوب الوصف: من خلال وصف اهم الجوانب المتعلقة بالمنتوج.
- الاستدلال المنطقي: وينقسم الى نوعين:
  - الاستقراء: انطلاقا من الخاص الى العام.
  - الاستنباط: انطلاقا من العام الى الخاص.

حجج متنوعة:

حجج ذات قيم دينية:

فعند اقتراب رمضان والاعياد الدينية تكثر الاشهارات التي يسيقي مضامينها من قدسية هاته المناسبات حتى يكون لها التأثير القدسي على المستهلك

حجج و اقعية:

التي توهم بواقعية الاحداث من خلال تمثيليات وقصص صغيرة مرتبطة بالمنتوج.

حجج تاريخية:

شخصيات مشهورة: فنية ورياضية.

استشهادات قوية: على لسان الخبراء كالأطباء وغيرهم.

الايهام بالواقع السعيد: المرتبط بالمنتوج

توظيف الحجاج اللغوي البلاغي:

- توظيف اسلوب الانشاء الطلبي
- توظيف الأسلوب الخبري.
- عبارات دالة على الاغراء.
- توظيف المحسنات البلاغية.

3- الخطاب الأدبي:

هو نقيض للخطاب العلمي لأنه غير ثابت، ولا يقدم حقيقة علمية دقيقة، وإنما يقدم حقيقة فنية تنبع من الذات، وهو نظام إشاري دال، وهذا النظام تشكله مكونات الخطاب وعناصره: الأصوات والمعجم والتركيب والمعنى والتداول، وهو بناء لغوي، واللغة فيه متكلمة عن ذاتها، ومتكلمة عن الأشياء خارجها وفق الصورة التي ترى بما الاشياء. ولغته ملأى بالجناس والتصنيفات اللاعقلية والاعتباطية. كما تتخللها الأحداث التاريخية والذكريات والتداعيات. فخصائص الخطاب الأدبي

متأتية من: - خصائص جمالية، وأسلوبية، وبنيوية وظيفية. وقد اصطلح عليها بالأدبية: وهي صفة الأدب وميزته، وهي مصطلح حديث، وأما من حيث المفهوم، فهي قديمة النشأة، إذ أشار إليه كل من أرسطو وأفلاطون في بحثهما عن الأدبية في النصوص الإبداعية، ولكن تحت اسم الشعرية لا الأدبية باعتبار السائد أنداك هو الشعر الغنائي.

وأول من أطلق هذه التسمية، هم الشكلانيون الروس أثناء محاولتهم لعلمنة الأدب، وجعله علما مستقلا بذاته، فلم يهتم الشكلانيون الروس على غرار سابقيهم بالأدب كمفهوم عائم، بل كهاجس علمي ينشد الدقة والصرامة في تحديد موضوع الدرس، وتعيين حدوده، ومنه نادى الشكلانيون الروس أولا بضرورة ميلاد علم جديد للأدب، هو الشعرية كمقابل للشعرية الكلاسيكية، وموضوع هذا العلم لن يكون الأدب كمفهوم عائم ولكن أدبية الأدب. يقول رومان جاكبسون في هذا الصدد: "إن موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب وإنما الأدبية أي ما يجعل من عمل ما أدبيا"[1]. تحدد منهج الشكلانيين الروس الذي اختزل هذه المفاهيم الجديدة في عبارة أدبية الأدب، ومعناها البحث في العناصر التي من شأنها أن تجعل من نص ما نصا

1سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، (السرد، الزمن، التبئير)، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، 2009، ص14.

أدبيا، ولن تتحقق هذه الأدبية إلا بعزل الأدب عن سياقاته المختلفة، وهم يعرفون بأن هناك عناصر مشتركة ما بين هذه العلوم والأدب، ولكنهم يحبذون عزلها وتعطيلها مؤقتا.

إذن، كان الهدف هو تجاوز التصورات القديمة للأدب التي لم تكن تأخذ في الاعتبار ما يضعه الشكلانيون شرطا ضروريا لإنجاز دراسة علمية للأدب. فالنقاد يرون في ضرورة قطع الصلة أو العلاقة مع الإرث الأدبي الذي ازدهر في المرحلة المتقدمة عنهم، وبالتالي فهم يرون ضرورة التخلي عن الدراسات التقليدية التي أثقلت كاهل الدراسات الأدبية التي تجاذبتها عدة علوم أهمها: علم النفس وعلم الاجتماع، والتاريخ بمعنى أنه ينبغي التوجه إلى العمل الأدبي مباشرة دون الاستعانة بنتائج هذه العلوم بمعنى أن الأدب نفسه يصبح هو الموضوع أي موضوع علم الأدب لذا ميزوا بدقة بين تاريخ الأدب وعلم الأدب. وقال إخنباوم: "يجب أن يكون موضوع العلم الأدبي دراسة الخصائص النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها من كل مادة أخرى"[1].

أصبحت مقولة جاكبسون هي مركز التفكير لدى الشكلانيين والنقد الأدبي الحديث الذي حدد بدقة موضوع،

1المرجع نفسه، ص13.

وطرائق تحليل الأدبية التي أصبح موضوعها الخطاب الأدبي، وليس الأدب بمفهومه العام الذي هو الشكل هنا، الشكل الذي ليس إلا الخصائص التي تحدث عنها جاكبسون، هذه الخصائص لا يمكن البحث عنها إلا من خلال الخطاب.

استعار النقاد جملة حاكبسون وطبقوها في حقول محددة. كفلادمير بروب الذي استعارها في التحليل المورفولوجي للحكاية الخرافية. وكلود لفي شتراوس في تحليله البنوي للأسطورة. وتيزفيطان طودروف الذي قال: "ليس غرض نشاط البنيوي هو الأثر الأدبي بالتحديد بل غرضه اكتشاف مميزات الخطاب المسمى بالخطاب الأدبي... كما استعارها لامارت الذي قال "ليست المسألة الأولى والأساسية هي وصف أشكال السرد بل اكتشاف المعايير التي يمكن بموجبها اعتبار الاثر الأدبي أثرا سرديا"[1].

ولقد بحث النقاد من بعد الشكلانيين عن الأدبية مستعينين بالمناهج اللسانية (البنوية والسيمائية).

4- الخطاب الصحافي:

يتحدد الخطاب الصحافي بأنه "مقال وصفي أو تفسيري أو نقدي". والمقصود بالوصف عندما يصف عنصرا من عناصر

1الطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، 2008، ص14.

الواقع أو الحدث، والمقصود بالتفسير عندما يتجاوز الوصف إلى بيان أسباب ونتائج العنصر أو الحدث، أما أن يكون نقديا فعندما تمسي ذات المتكلم أساسية بحيث تحضر الذات العارضة للحدث من وجهة نظرها.

إن النص الصحافي حاصل لا محالة عن تفاعل ثلاثة مجالات: اللغة، التواصل، والمعرفة.

وتتنوع الأشكال التي يتخذها الخطاب الصحافي فقد يكون تقريرا إخباريا، أو افتتاحية جريدة، أو برنامجا تلفزيا، أو مادة إذاعية، أو غيرها.

وظيفة الخطاب الصحفي:

الخطاب الصحافي غايته الأولى التواصل، والتواصل في مفهومه العلمي يعني التفاعل بين ذوات تفعل فعل التواصل. يسعى الخطاب الصحافي إلى تحقيق وظيفته التواصلية عبر تقنيات أو استراتيجيات المستوحاة من علوم أخرى كالبلاغة، والخطابة، وغيرها... ويمكن إيجاز هذه الإستراتيجيات في:

استراتيجية الإقناع:

وفيه يركز المخاطب على قضايا الخطاب، محركا كل الأدوات الإقناعية لتعزيز الترابط المنطقي بين المقدمات

والنتائج، والإقناع في اللغة العربية يعني، خضوع المُخاطب لرأي المُخاطِب.

استراتيجية الإفحام: وفيه يركز المخاطب على أدوات الخطاب، من خلال طغيانه على ذات المخاطب، دون رضا هذا الأخير، ويظهر هذا النوع خاصة في الخطابات الإيديولوجية.

استراتيجية الاستمالة: ومعناها الفوز بميل المخاطب، بحيث إن المخاطِب يستميل المخاطب عاطفيا فتتحقق بالتالي الوظيفة التأثيرية للخطاب.

تجدر الإشارة إلى أن هذه الاستراتيجيات يتقاسمها الخطاب الصحافي مع أنماط خطابية أخرى، سياسية أو دينية... من ثمة يطرح السؤال/الإشكال، بماذا يتميز الخطاب الصحافي عن باقي الخطابات؟ فقط نقول إن أحد خاصياته كونه صادرا عن مؤسسة إنتاجية تسمه بسمات الصحفية.

إذا فالخطاب الصحافي، كغيره من الخطابات، مؤسسة لسانية ذات بعد تواصلي، غايته التأثير في المتلقي، وتوجيه الرأي عبر مجموعة من التقنيات المستمدة من حقول فنية ومعرفية أخرى، كالبلاغة والأدب، والسياسة... مما يشترط على محلله التسلح بزاد نظري قوي، ومنهج علمي متين، حتى يتسنى

له سبر أغواره وكشف خباياه، والوقوف على أدق مميزاته، وأن يكون المحلل كذلك قارنا لما وراء السطور، وليس ذا نظرة تحليلية سطحية واصفة. وهذا كله بغية فهم الرسالة وتأويلها، وكذا الوقوف على تقنيات الخطاب الصحافي.

ثالثاً: في مفهوم المرجع والوظيفة المرجعية

1- مفهوم المرجعية في اللغة والأدب:

إنّ اللغة بما هي نظام تواصلي تقوم بتسمية الأشياء المتحدث عنها بواسطة الألفاظ التي يسميها (دوسوسير) علامات لغوية، ولا يمكن تحديد محتوى هذه العلامات إلاّ بمساعدة تلك الأشياء التي تشكل مرجعا لها. بمعنى أن تلك العلامات اللغوية لا يمكن أن تكون ذات قيمة دلالية في حدّ ذاتها نحو شيء ما. لكن المرجع هو غير المدلول، لأن المدلول هو حاصل الجمع بين الشيء واسمه، أمّا المرجع فهو حاصل الجمع بين الصورة السمعية أو البصرية (المقروءة) وبين المفهوم أو التصور الذهني وهو ما تؤديه العلامة كلّها ويسمى بالمرجعية[1]

وهناك طبعا تمييز بين العلامة مجردة (signe-typ) والعلامة مدمجة زمنيا وكانيا (signe occurance) والتي ليس لها

1 F، De saussure، C.L.G، p160.

مرجع فقط، وإنّما لها قيمة مرجعية كذلك لأنها تستعمل من طرف متحدث معين، وفي ظروف معينة أي في سياق خاص، ومن ثم يكون البحث عن معنى العلامة اللغوية أو عن دلالتها الحقيقية هو علميا محاولة تحديد المرجع أو المواصفات التمثيلية له. ولذلك قد تشترك علامتان في نفس المرجع ويكون لهما معنيان مختلفان باختلاف سياق الاستعمال، فقد يعرف زيد بأن نجمة الصباح هي (فينوس) لكنه قد لا يعرف زيد بأن نجمة المساء هي أيضا (فينوس) وقد يقول الحرم ويعني الزوجة ويقول ربة البيت ويعني الزوجة كذلك. ومن هنا ينبغي التمييز بين المعنى والمرجع في دلالة العلامات، فإذا كانت معرفة المعنى تقتضي معرفة باللغة أساسا فإن معرفة المرجع تقتضي معرفة بالتوسعات الاصطلاحية في استعمال ذلك المعنى. وعليه يعتبر البعض أن الوظيفة المرجعية في اللغة لا تجعل العلامة في اتصال مع عالم الأشياء الحقيقية، لكن مع العالم المدرك داخل التشكيلات الثقافية، فلا تكون الإحالة على شيء من الواقع ولكن على شيء من الفكر[1].

وقد يكون لجملة ما معنى ولا تكون لها مرجعية كحديثا عنها أول من اخترق الشمس، وهذا ما يجعلنا أمام بعض القضايا

1 Michel Adam، Linguistique et discours littéraire-L، Paris 76، P 263.

اللغوية التي تؤسس لمفهوم المرجعية مثل علاقة اللغة بالواقع أو علاقتها بالفكر أو بالمعرفة[1].

إذ اللغة شواء في التخاطب أو في التفكير لا يمكن أن تنصب إلاّ على شيء من الواقع الطبيعي أو الاجتماعي أو من الوقائع النفسية، لكن ما يثير الجدال بين علماء اللغة وفلاسفتها في أولويات المعرفة هو إقامة الأسبقية بين خلق اللغة لتصورنا الواقع، وبين نقله أو إعادة إنتاجه حرفيا.

فالذين يدافعون عن أطروحة إيداع اللغة لصورة الواقع، يقصدون أنّ اللغة تتضمن في ذاتها فكرة عن العالم المحدد بل هي التي تحدد إدراكنا وتصورنا له، أي أنّها تحمل الفكر على تجميع عناصر الواقع المشتتة لتشكيل صورته منظمة في الذهن، بيد أن هذه اللغة بدورها تعتبر نتاجا لممارسات اجتماعية متراكمة، ولذلك لا يمكن أن تكون الصورة التي توفرها للعالم إلاّ ذات

1سنعتمد بالأساس في تقديم الطروحات على ما جاء في كتاب:
Adam Schaff، langage et connaissance – Anthropos (langage et réalité)، P 197 et suite.

أصول وجذور ضاربة في الثقافات البشرية المتراتبة، ما دام الكلام لا يمكن أن ينقل إلاّ كلاما[1].

أما الذين يدافعون عن أطروحة الانعكاس أو النقل فيربطونها بمفهوم الصدق أو مقتضى الحال ويرتبون عليها وجود حقيقة خارجية أو موضوعية مستقلة عن الفكر، وما تمثله اللغة في الذهن هو شيء مماثل لتلك الحقيقة وقد يكون مطابقا لها، لكنها سابقة عليه ولاحق لها، والعلاقة بينهما، هي علاقة مرجعية توليدية أو تحفيزية فقط، ولذلك فعنصر الذاتية ليس غائبا تماما في ذلك النقل أو التمثيل لأن وظيفة الفكر لا تقتصر على العكس الهادئ المسالم للأشياء وإنما هو طاقة ديناميكية عاملة في التحصيل والاستيعاب، وهذا يعني ظان تمثل الواقع الموضوعي أو الحقيقة الخارجية أي إقامة مرجعية ذهنية بجميع تمفصلاتها، لا يتوقف فقط على ما يكون عليه ذك الواقع، لكن أيضا على ما يكون عليه الإنسان المدرك أو العارف، وهذا هو أساس اختلاف وجهات النظر بالنسبة لنفس الواقع مثلا

1 محمد خرماش، مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، مجلة الكتاب العربي، مجلة فصلية تصدر عنه الاتحاد العام للأدباء، والكتاب العرب –السنة التاسعة عشر- العدد (51-52)، حزريان، 2001م، ص150.

وعلى كل حال، فالمرجعية في الحالتين مسؤولية لغوية، وبدون لغة قد لا نستطيع تصور شيء من الواقع ولا من الطبيعة ولا من أنفسنا. إن العالم كما يقول J.F Lyotard هو وظيفة كلامية، لكن الكلام يتضمن الوظيفة–العالم، بمعنى أن كل كلام هو متكون مما يعنيه في العالم[1]، أي لا يقوم شيء بدون مرجعية ولا تقوم مرجعية بدون مرجع.

وما يكون عندنا ليس هو الأشياء ذاتها وإنّما هي صورتها الذهنية التي تحددها الشفرات السوسيو-ثقافية وتنحصر في فضاءات مشتركة بين المستعملين أو في نماذج مقولية، أو إيحاءات مسكوكة[2]، وعليه قد يجوز القول بأن معرفتنا بالواقع أو ما يقوم في أذهاننا من تصور للعالم مرتبط ارتباطا تكوينيا بما تهيئه اللغة باعتبارها منتوجا لهذا الواقع أصلا، وباعتبارها منتوجا للممارسات الاجتماعية فيه كذلك.

وهو ما يفيد أن اشتغال الفكر عملية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتربية اللسانية كما يقول (آدم تشافA. SCHAFF) وبالتكوين اللغوي الذي يتلقاه الفرد في مجتمعه الذي هو مخزن المحصولات اللغوية المتراكمة، وهنا يحضر دور اللغة في نوعية الإدراك الواقعي أو المرجعية التي يقيمها الذهن وتنشأ جدلية

1 J.F Lyotard، discours، Figures، Paris Klincksiek 197، P 83.

2 C. Duchet، pour une saciocritique …، P71.

اللغـة والفكر/والفكـر واللغـة، وتبرز قولـة (هانبولـت W. HUNBOLDT) المشهورة: (إن الإنسان يفكر كما يتكلم، ويتكلم كما يفكر...).

وبذلك تضحي اللغات بالإضافة إلى وظيفتها في التواصل الاجتماعي مستودعا دائما لأفكار الأمم ومحفظة حافظة لخصائصها الروحية والمزاجية الناجمة عن ممارستها الاجتماعية والحياتية، (فالإسكيمو) يتمثلون أنواعا من الثلج وليس الثلج بصفة عامة، لا لأنهم أرادوا ذلك الناس ولكن لأنهم لا يستطيعون إدراك الواقع إلاّ كذلك، ولغتهم المخصبة به هي أداتهم في إقامة مرجعيته

نخلص من كل ذلك إلى أن الإنسان واقع لا محالة طائلة الوضعية اللغوية التي يدرج عليها ويتشبع بها، لكن المرجعية التي هي سبيله فيها إلى التعامل مع الواقع ومع الفكر تقتضي امتلاكا للقدرات اللسانية، ومعرفة بالإجراءات السياقية المساعدة على تحديد المرجع.

ولذلك ينبغي حينما نتحدث عن المرجعية في الخطاب الأدبي أن نتجاوز الاهتمام بالعلامات اللغوية إلى الاهتمام بالوقائع الكلامية، أي إلى النظام الذي يكونه الخطاب عبر سلسلة الملفوظات، من النظام السميوطيقي SEMIOTISUE

(دلالة العلامات اللغوية) إلى النظام السيمانطيقي Sémantique (دلالة التراكيب) أي من طريقة للتدليل Signifiance تعتبر العلامة اللغوية هي الوحدة الأساسية، إلى نظام خاص للتدليل يولده الخطاب.

وبهذا الاعتبار لا تكون المرجعية محكومة بمطابقة الدلائل لمحتوياتها فقط وإنّما بقوانين إنتاجية الخطابات وممكناتها، أي أن الكلام ينتقل –كما يقول دوسوسير- من المستوى التصريحي الذي يتكون فيه المرجع من اجتماع الدال والمدلول إلى المستوى الإيحائي الذي يصبح فيه المرجع دالا على مدلول آخر يكوّن معه مرجعية جديدة وهكذا[1]

2- بين الوظيفة المرجعية والوظيفة الجمالية في النص الأدبي:

وقد ربط (الشعريون) هذا الصراع الموجود بين الخضوع للمرجع وبين استطلاع ممكنات اللغة بالمسألة التواصلية وبالعلاقة بما هو خارج اللغة بحيث يقتصر الكلام في الأولى على الإخبار أي على تحديد المرجع بالوقوف عند العلامة (اللغوية)

1 L. Hjehnslev، Prolégoménes à une théorie du langage، ed Minuit، Paris 66، P 161.

وما تحيل عليه، أما في الثانية فنتضد دلالة إضافية تعطي للإرسالية تلوينا خاصا.

وبما أن الخطاب إيحائي كثيف ومكون من شفرتين متراكبتين: شفرة اللغة وشفرة الأدب، فإن الوظيفة المرجعية فيه باعتباره فعلا تواصليا قد تبدو باهتة أو متخلفة أو لاغية في نظر البعض. وهي لا تتأتى –حسب جاكبسون- إلاّ من خلال الصيغ التي تثير الانطباع بأن الخطاب الأدبي منسوخ من الواقع لأنّها تجمع عدّة تفاصيل مرجعية قد تكوّن سياقا أو ظريفة خاصة. وبعبارة أخرى فهي تشي للقارئ باشتغالات العالم التخيلي كي توهمه بمرجعية واقعية هي في الحقيقة ذات قانون شعري، وينطبق عليها تفسير ما يسميه (ف هامون PH.HAMON) بـ (الأدبية المرجعية) أو الخطاب المكره[1] الذي لا يكون التوافق المرجعي فيه مع الواقع وإنّما مع النظام الثقافي المؤسساتي القائم مقامه.

وعليه فإن الأدب لا يقدم لنا الواقع كما هو وإنّما يقدم لنا ما يساعد على تلمسه، فلإظهار الشيء لابد من تلوينه كما كان

1 Philippe Hamon، un discours contraint، In littérature et réalité (G.E)، ed da Seuil Paris 82، P 119 et suite.

يقول دوستويفسكي[1]. وأكثر من هذا وذاك فإن الخطاب الأدبي لا يحتمل اختبار الصدق والكذب كما يقول (فريج G.Frege)[2] وكل ما فيه احتمالي فقط، والمحتمل –كما قال أرسطو منذ القديم- ليس هو العلاقة بين الخطاب ومرجعه علاقة صدق وصحة، وإنّما هو العلاقة بين الخطاب وما يعتقد القراء أنّه صحيح أو قد يصح، أي أن المرجع يصبح نوعا من التواضع أو التعاقد بين الكاتب والقارئ فقط، وبدلا من انعكاس الواقع يكون عندنا واقع الانعكاس الذي تحدده شفرة سوسيو-ثقافية مشتركة[3]. وبهذا الاعتبار يكون الخطاب الأدبي، وبالنسبة للّساني على الأقل، غير ذي مرجعية أو له شبه مرجعية فقط. لكن لابد من التنبيه إلى أن هذا الخطاب لا يتكون من أشكال فارغة وإنّما هو ملتقى لعبة (العلامات) المليئة التي قد يقوم في نطاقها بعملية تحويل خاصة لكنّها تبقيه على اتصال وثيق بالثقافة وبالمعرفة وبالتاريخ، ومن ثم تعتمد القراءة الصحيحة على إقامة وتتبع خط التحول أو الانتقال الحاصل في سلسلة المرجعيات.

1محمد خرماش، مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، ص150.

2 G. Frege، sens et dénotation in écritslogiques et Philosophiques.

3 T. Todorov، qu’est-ce que le structualisme ? Poétique 2- seuil 68، P37.

بقي أن نشير إلى أن البعض يعتبر الخطاب الأدبي مجالا لاستثمار ممكنات اللغة وتفجير عبقريتها بإقحام العلامات اللغوية في تكوينات جديدة قد تعتبر انزيحات أو خروقات ولو أنّها مجرد تحقق لاستعدادات كامنة، وبذلك تركب الوظيفة الشعرية فيه الوظيفة المرجعية، إن لم نقل تغيبها أو تطمسها، ونحن لا نحتاج في قراءته إذن إلاّ إلى معرفة كيفية اشتغال دلائله، وبحث مختلف الصيغ التي تحقق عملية الاندلال (Signifiance) فيه[1].

أما القيمة المرجعية فلا تعدو أن تكون قيمة خطابية (Discurvice) محايثة أي قيمة جمالية قبل كل شيء لكنها قيمة تكوينية كذلك، ومن ثم يجوز أن تتسلل المرجعيات في الخطاب الأدبي أو تعدد بتعدد مكوناته، حيث إنّه متفاعل في عملية التناص مع خطابات أخرى (الأساطير أو التراث مثلا) وقد يؤدي ذلك إلى تناسل المرجعيات، كما يهيئ متعة الاكتشافات المتتالية في نطاقها، لكنه يشكل صعوبة في القراءة ويسمح بتعددها كذلك[2].

1 R. Jakobson، Essais de linguistique générale، ed Minuit، Paris، 1963، P218.

2محمد خرماش، مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، ص150.

وبما أن الأدب في هذا التكون يشغل شفرتين متعالقتين: شفرة اللغة الأصل وشفرة تبنينه كخطاب خاص، فإن صعوبة إجرائية كبيرة تنطرح أمام القارئ لفك الارتباط بين الشفرتين من جهة وللوصول بالتالي إلى الحقيقة المرجعية الأساس، بل إنّ كل محاولة للعودة به إلى موضوعه الأول (المرجع) ستجرده من أرقى ميزاته التي هي عملية (تنصيص) ذلك المرجع ودمجه كلية في البنية الجديدة المركبة التي هي بنية الخطاب الأدبي. ولعل هذا الأمر هو ما جعل (ميخائيل ريفاتير M. Riffaterre) يقلل من شأن الوظيفة المرجعية في الخطاب الأدبي والشعري بخاصة ويعطي الأسبقية للوظيفة الأسلوبية أو الجمالية التي تجعله أبعد ما يكون عن تمثيل الواقع الذي تلاشت خصائصه عبر جملة من الاشتغالات الأسلوبية المهيمنة، وتجعل الاعتقاد بوجود ذلك التمثيل في النص الشعري مجرد "وهم مرجعي" يتعلق به القارئ في شروط ثقافية وأيديولوجية حيث إنّ الاستعمال اليومي للغة يخلق لدى المستعمل وهما بوجود علاقة طبيعية بين العلامات/الدوال وما تقيمه في الذهن من مدلولات، في حين أن ذلك مجرد تفسير أسطوري للواقع أوجده المستعمل لتبرير وجود تلك العلامات وجعلها مقبولة في منطقه، وهذا الخطأ هو الذي يسقطه القارئ على العمل الأدبي كذلك بتحويل التصور المرجعي (الوهمي) الموجود في ذهنه إلى

النص كي يصبح عنده مجسّدا للواقع ومحاكيا له، والحال أن عملية الأسلبة أو التنصيص تلغي –في نظر ريفاتير- عملية المحاكاة وتسلبها خطيتها وبساطتها، وتجعل المعنى المتولد في النص ناتجا فقط عن عملية التدليل أو الاندلال (Signifiance) القائمة على الإجراءات الأسلوبية التي تحدث قطيعة تامة أو شبه تامة بين النص الأدبي وأصوله المرجعية[1].

ولا يخفى ما في هذا الطرح –على وجاهته- من غلو في تقدير القيمة الأسلوبية وتفسير القيمة المرجعية، وهو ما عرّضه لإنتقادات كثيرة وخاصة من طرف السوسيولوجيين والسوسيولسانيين الذين يعتبرون أنّ إشكالية قراءة النص لأدبي وتأويله لا ينبغي أن تقف عند حدّ معرفة عملية التدليل أو الاندلال (Signifiance) القائمة على التصنيع اللغوي، وإنّما ينبغي أن تتجاوز ذلك إلى بحث تمثلاته الاجتماعية على اعتبار أن عملية (التنصيص) في الخطاب الأدبي ما هي إلاّ محطّة توسطية تمكن من إقحام المرجعي في الأدبي ومن إنتاج الأدبي مما هو مرجعي وتكثيف نظاميهما المتعالقين في بنية ضامة تشهد تقاطعهما وتفاعلهما واندماجهما[2]. بل إنّ المرجعية الأصل

1 M. Riffaterre، l'illusion référentielle، in littérature et réalité، ed du seuil Paris 82، P91 et suite.

2 Jacques Dubois، la sociologie de la littérature، in Methodes du texte Paris 87، P 290.

–وليست في نظر الكثير إلاّ مرجعية اجتماعية- هي التي تلهم الأديب خطة عمله وتدفعه إلى انجاز استراتيجيته النصية والتناصية كذلك. وعلى القارئ الحصيف أن يستثمر في تأويله كل المؤشرات النصية ليمسك برأس الخيط ويصعد إلى نقطة البدء في عملية التنصيص وبذلك يستطيع تبين المرجعية العامة أو المرجعية الأساس لما هو بصدده من كلام، إذ كل ما يجري على مستوى الرؤية أو التعبير الدال لا يمكن أن يتأسس إلا على المفاهيم المتداولة كما يقول لـ كولدمان[1].

عن المرجعية وبناء استراتيجية النص الأدبي: إذا كانت وظيفة القراءة والتأويل –كما يقول (ماريو فالدس Mario Valdes) هي انتاج نوع من الفهم، وبالتالي تقاسم أنواع من الدلالات المحددة مع قراء آخرين، فلابد أن نتساءل مع ذلك عمّن فهم بالضبط[2].

فالقارئ أو المتلقي أو المؤول هو الطرف المستهلك الذي يحسب حسابه عند الإنتاج، وقد اتخذ هذا القارئ مفاهيم عدة لا نريد التعرض لتفاصيلها، لكننا نذكر منها ما له علاقة

1 Lucien Goldman، Structure minitales et création culturelles، Paris، Anthrepes، 70 P 17.

2 Mario valdes، de l'interprétation trad jean، cloude choul، en théorie (G.E)، P. EF 89، P 272.

بإنتاجية النّص، أي بما يساعد على تجسيد القيمة المرجعية سواء على مستوى الكتابة أو على مستوى القراءة، ولو أن المستويين أصبحا متداخلين تداخلا يزيد الإشكالية تعقيدا وصعوبة...

وبما أن المؤول هو قارئ قبل كل شيء، والقارئ هو الذي يعطي النص تحققه الفعلي، فإنّ هذا القارئ المفترض يكون حاضرا أو يستحضر منذ البداية، واستحضاره هو الذي يجعل الكاتب يتبع خطة معينة في الكتابة من أجل تضمين النص ما يريد أن يوصله لذلك القارئ أو القراء الذين استحضرهم، ومن أجل أن يساعدهم من خلال بنايات النص على تبيين ما يريد تبليغهم إيّاه، وهذه العملية هي عملية بناء استراتيجية النص التي يسميها (ايزر W.iser) البنية النصية المحايثة للمتلقي ويقصد بها "مجموع التوجيهات الداخلية التي يهيئها النص الأدبي لمجموع قرائه المحتملين"[1].

وتأتي ضرورة هذه العملية في نظره من كون الخطاب الأدبي معارضا للخطاب العادي (الحركي) الذي هو (تداولي) أما الأول فهو (غير تداولي) (Dépragmatisé) وفعل القراءة هو محاولة (لإعادة تداوليته) (Répragmatisé) يقوم بها القارئ تحت ضغط

1 Walfogang iser، l'acte de lecture théorie de l'effet esthétique، Bruxelle، Mordaga 85، P 70.

العمل الأدبي نفسه وبمساعدة الإشارات والتوجيهات التي يوفرها له. وإذن فالقارئ الذي هو ضمني كما ينعته ايزر (lecteur implicite) لا يوجد إلاّ بواسطة النص ومن خلال استراتيجيته التي هي شرط للتلقي لأنّها توفر له مجموع احتمالات توافقية ينبغي أن يتكئ عليها في مجموع احتمالات توافقية ينبغي أن يتكئ عليها في فعل القراءة أو التأويل.

ويمكن أن نأخذ فكرة نظره عن فعالية الاستراتيجيات حينما نريد أن نوسع أو نلخص عملا أدبيا ما فنجد أن ما يضيع في مثل هذا التمرين هو بالذات ذلكم التنظيم الاستراتيجي الذي يحكم تمفصلات العناصر البانية في العمل، والذي هو بمثابة كينونة ديناميكية توجه القارئ وترشده أثناء عبوره للنص، ذلك أن النص لا يتهيأ كوحدة كلية قابلة للاختراق، وإنما تتم قراءته في خط زمني مسترسل باسترسال مقاطعه، وكلما دخل مقطع في الحقل البصري للقارئ كان أكثر تأثيرا عليه دون أن تغيب المقاطع الأخرى التي تتراجع إلى الخلف لكنها تستمر في التأثير على الوعي القارئ وعلى مجريات القراءة.

ويمكن أن نتذكر هنا ما أسلفناه من مفهومي (ريفايتر) عن القراءة الاستكشافية والقراءة الاسترجاعية التي تساعد القارئ على تعديل مواقفه كلما تقدم اتصاله بالنص وتواصله معه أي

كلّما استثمر امكانياته وتعرف على استراتيجيته. إنّ النص الأدبي –كما يقول إيزر- نظام توافقي (Combinatoire) قد أعد فيه مكان للشخص المكلف بتحقيق توافقاته[1]. وهذا المكان يجده القارئ في الفجوات أو الفراغات التي تكسر تجانس النص وتترك للقارئ مهمة ترميمه وتقويمه، وكذا في الطاقات الانتقالية التي تبطل في النص ألفة العناصر الآتية من خارجه، ذلك أن العنصر المألوف قد يفقد مرجعيته الأصلية حينما يمتصه النص ويخرجه من سياق ليضمه إلى مدونته أو سجله Répertoire التكويني فيوقع عليه بعض التغيير وبعض التنكير الذي يعطيه قبولية جديدة في إطار التشكل النصي ذاته، وعلى القارئ الضمني أن يعيد تقويم الأشياء من خلال هذه الفرص التي يتيحها له النص الذي هو باعتبار ما نص مضاعف أو مضعّف أي مصحوب ضمنيا بنص آخر يسمح للقارئ وحده بإظهاره. وهذا التضاعف هو منبع تعددية المعنى وتعددية القراءة في الأدب.

إنّ ما يقوله النص أو ما لا يصرح به (ومن طبيعته ألاّ يفعل) يشكل بالنسبة للقارئ فرصة إبداعية، عليها تقوم حريته في التأويل ولو أنّها حريّة محدودة لأنّها مراقبة أو موجهة على الأقل.

1 IBIDI، P 175.

إنّ بناء استراتيجية النص يبدأ إذن مع بداية اختيار المتن أو المدونة التي سيشتغل بها (le répertoire): وهي عند (إيزر) كل المحتويات التي تعود من خارج النص مثل حضور نصوص أخرى (تناص)، ولكن بالذات مثل (المعايير الاجتماعية والتاريخية) أو ما يسميه بـ"السياق السوسيو-ثقافي العام الذي ينبثق منه النص"[1]، وأعتقد أنّ التأسيس المرجعي في النص يبدأ كذلك مع بداية هذه الخطوات البانية، وأنّ المدونة المنتقاة تمثل قدرا من حضور العناصر المرجعية المألوفة في سياقها الأصلي، وأن محاولة تنكيرها عملية الإدماج في البنية النصية الجديدة هو نوع من الامتصاص والتحويل الذي لا يريد أن يقدمها جاهزة للقارئ المفترض ولكن يقدمها له من خلال التنظيم الاستراتيجي الحافز على اكتشاف الإطار المرجعي المشترك بين القارئ وبين ما يقرأه، والداعي إلى خلق ديناميكية للقراءة تجعل منها عملا إبداعيا ومساهمة إنتاجية لكن في نطاق الاستراتيجية النصية الموجهة، سلفا، وبذلك تثبت للعمل الأدبي الجاد قيمته الخطابية وقيمته المرجعية، ويثبت للقارئ المناسب دوره الحيوي والضروري في تحقيق تلك القيم، ويكون فعل القراءة والتأويل قد نجح في (إعادة تداولية) الارسالية الأدبية دون أن يفقدها طابعها (الأيقوني) كما يقول

1 IBIDI، P 128.

(امبراطوايكو E.ECO). وإذا كان هذا التعاون الإنتاجي شرطا حتميا بين النص والقارئ على اعتبار أنّهما نصان سيتقابلان ويتفاعلان تفاعلا دلاليا (وقد أبدا المظورون وأعادوا في إشكالية هذا التفاعل). فإنّنا لا نريد تلقيا شاذجا كما يقول (KASTIERLE تنتهي فيه القراءة إلى نوع من التواطؤ الذي تملأ فيه فجوات النص بطريقة تلقائية، ولا نريد تمردا ينتهي إلى إلغاء النص لصالح وهم ينتجه القارئ نفسه وربما بدافع النص ذاته... [1] لكننا نريد مساءلة ترسخ في وعي القارئ بأن المرجع ليس هو فقط (مجرد ما هو خارج النص) وإنّما هو من انتاج النص نفسه[2].

إنّ لعبة التأويل والبحث عن المرجعية تستقر في نهاية المطاف عند نوعية القارئ وقناعته، إذ من الممكن أن يأخذ القارئ دور المشارك في لعبة نصية لا تنتهي، فيستغرق في شبكة النص الداخلية مؤجلا باستمرار مسألة مرجعيته أو علاقته بالعالم الخارجي.

وهذا الدور هو الذي يركز عليه الشكلانيون لأنه يوقف مجال المرجعية عند حدود العالم الذي تنشئه المعطيات

1 Karlheinz Stierle، Réception et fiction، poélique 39 (1979)، P 300.

2محمد خرماش، مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، ص150.

اللسانية والبنائية، والحال أن هذا الإجراء قد يعتبر كبحا لعملية القراءة التي من طبيعتها أن تتجه نحو الفهم المعقول أي نحو إيجاد تأويل مقبول ومقنع للنص وذلك طبعا بإشباع الفضول المرجعي في الدلالة. ولذلك يرى (MARIO VALDES) بأنّ أمر وقف السيرورة المرجعية متوقف على بساطة أو سهولة التأويلية. بمعنى أن النص (المقروء) (Lisible) يحقق العملية التواصلية بالإحالة إلى العالم القريب، فيسمح بالقراءة لأنّه غير منغلق على نفسه، أي له شيء ما لأحد ما[1].

ومن هنا تصر نظريات التأويل على الاندماج الضروري بين النص والقارئ وتعتبر أن الفهم الإيجابي يقوم على الاستجابة الحقيقية لمقصدية النص أي على الاستفادة من المؤشرات التي يهيئها للقارئ كي يدرك خطة انبنائه ويندمج في سيرورته. إنّ عملية التأويل ليست متروكة لاجتهادات القارئ أو الناقد المؤول فقط، وإنّما هي محكومة بمعرفة الظواهر النصية وكيفية اشتغالاتها، ولكن ليس لتقف عند حدود الإجراءات التفكيكية في تقديم الإنتاج الأدبي، وإنّما لتستمر تلك المرحلة باعتبارها عملية توسطية علمية وضرورية نحو استشراف البعد الآخر الذي هو الحقيقة المرجعية الكامنة، وبذلك يكون التأويل الذي هو فن الفهم العميق وفن استخلاص الدلالات الحقيقية قد بلغ

1المرجع نفسه، ص150.

مداه، ويكون بحق –كما قال عنه فالديس VALDES أيضا- نشاطا إنسانيا خلاقا في عملية التمثيل والتوسط والإبلاغ[1].

نخلص من كل ما سبق إلى أن مفهوم المرجعية الذي يحدد حقيقة الأصل المعبر عنه أو المدرك الأساس هو قيمة محايثة للنص الأدبي بحكم سلطة اللغة أولا، وبحكم السلطة الخطاب بعد ذلك، وبما أنّ القدرة التصورية التي تثيرها اللغة في جميع مستويات توظيفها واشتغالاتها لا يمكن أن تنصب إلاّ على شيء من الطبيعة أو من الإنسان فإنّ القيمة المرجعية التي يمثل إدراكها الحقيقي غاية التحقق التواصلي، لا يمكن إلاّ أن تكون ذات بعد اجتماعي أو إنساني في نهاية المطاف، بيد أن تجعل في استخلاص المرجعية الأدبية قد يكون على حساب الحقائق النصية التي تكسب الإنتاج الأدبي تميّزه الخاص، وقد يكون علامة على القصور أو التقصير في مجال القراءة والتأويل، أما محاولة طمسها أو إنكارها فهي تقصير في عملية الفهم أولا وتقليص لأبعاد النص وفعاليته ثانيا، وقد لا تسلم من شائبة التملص من المسؤولية الاجتماعية ثالثا. وبما أنّ الأدب العربي بالذات هو أحد الأسلحة الفعالة التي يعتز بها الإنسان العربي في مواجهة كل السلبيات، فما أظن من صواب التفكير النقدي – في هذه المرحلة على الأقل- أن يقال عن حقائقه المرجعية أنّها

1 المرجع نفسه، ص150.

وهـم يتوهمـه القـارئ أو أنّهـا مرجعيـات نصـية فقـط، ذلـك أن الأديب العربي لا يحمل همّ الكتابة فقط وإنّما يحمل همّ نفسه وهمّ أمّته كذلك بل هو همّ تحمله كل لفظة عربية وكل تركيب عربي سيستعمله، ومن الأكيد أنّه وهو يقوم ببناء استراتيجيته الفنيّة، يقوم بذلك بتسريب إشارته المرجعية، وهو ينتظر من قارئه الحصيف أن يفعل على مستوى القراءة.

والتأويل مثلما فعل هو على مستوى الإبداع والتوليد كي يتواصلا جماليا، وأدبيا، ومرجعيا تواصلا حقيقيا وتاما.

رابعاً: الخطاب الأدبي والروائي

الخطـاب الأدبـي نظـام إشـاري دال وهـذا النظـام تشـكله مكونـات الخطـاب وعناصـره وهي: الأصـوات والمعجـم والتركيـب والمعنى والتداول، وهو بناء لغوي، واللغة فيه متكلمة عن ذاتها، ومتكلمة عن الأشياء خارجها وفق الصورة التي ترى بها الأشياء، ولذلك فإنّ أي كلام عن اللغة لابد أن يكون باللغة وفي اللغة، ولا يغادرهـا إلى غيرهـا ولا يسـتعين بغيرهـا عليهـا تفسـيرا وتحلـيلا[1] والبحث في لغة الخطاب الأدبي هو بحث في الوظائف والأشكال الخاصة بالأنظمة الاعتباطية للرموز النصية ومحاولة تحديد

1منذر عياشي، اللغة والأشياء، الموقف الأدبي عدد 244، آب 1991م، دمشق، سوريا، ص20.

دلالتها ومعانيها، فكل لغة هي في ذاتها إنجاز جمعي في التعبير والتواصل، وهي تنطوي على عدد معين من البنى الصوتية والمعجمية والتركيبية التي لا تشاركها فيها أية لغة أخرى والخطاب الأدبي لا يمكن أن يكون إلاّ توسيعا لبعض خصائص اللغة واستعمالها[1] وتشكيل اللغة في الخطاب يحدد الأنظمة السيميائية فيه، لأن الأدب يتمتع بامتياز فريد بين الفعاليات الإشارية والعلامية الأخرى، واللغة بالنسبة للخطاب الأدبي هي المبدأ والميعاد وهي الوسيلة والغاية التي بها يحقق كينونته ويصير منها أعظما، يتجاوز المحدود إلى المطلق، ولذلك كان فعل القراءة يستدعي مهارة خاصة، وهذه الخصائص تمكن من إعادة صياغة علامات الخطاب وإعادة إنتاج معانيه دون تعسف في التأويل أو إجحاف في التفسير، ولا يستعصي تحليل الخطاب الأدبي إلاّ على من كانت عدته هزيلة، ومقاربته ضعيفة وهو غير متحكم في أدواته الإجرائية، ولذلك يشترط في القارئ أن يكون كفء متمكنا معرفيا من علمه ومنهجه وأدواته وإجراءاته إنّ مميزات الخطاب الأدبي تقوم على خصائص جمالية وأسلوبية وبنيوية وظيفية متنوعة، زمنها استثمار الأدلة الصوتية في السياق الشعري للخطاب الأدبي، وعبر هذه الخاصة

1إدوار سباير، اللغة والأدب ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص33.

تتشكل رمزية الأصوات، ويتحدد الإيقاع بين الطويل والقصير والبطيء والسرعة، والإيجابية والسلبية، وفي هذا المجال تظهر خاصية المعاجم المشكلة للخطاب وما يدور في متنه من حقول دلالية، وما يستبع ذلك من انسجام واتساق في البنية التركيبية للخطاب وما يتعلق به من أبعاد دلالية ورؤى وعبر هذه المكونات للخطاب الأدبي وظائفه.

1- القراءة والمقروء:

إنّ قراءة الخطاب إعادة لإنتاجه أو كتابته، وهي تقوم على ممارسة ثقافية لها تأثير في الحقل الاجتماعي، والدليل على ذلك أن التحول الذي يعرفه شكل القراءات يعبر عن تحول في صيرورة البنية الثقافية، ومن خلال هذا التصور تعامل القارئ مع الخطاب ليس بإعتباره عنصرا خارج اللغة أو خارج لعبة الكتابة وصناعتها، وإنّما كمكون أساسي داخل الخطاب[1].

إنّ الكتابة عن الخطاب الأدبي ما هي إلاّ احتفال معرفي به، وإنّ الخطاب حول الخطاب لا يمكن إلاّ أن يكون خطابا هو ذاته. والخطاب الأدبي يظل غير منجز مادامت قراءته متواصلة بل إنّه يتضاعف في دلالته مثل المتوالية الرياضية تبعا لتعدد

1محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، المغرب، ص54.

قراءاتـه[1]. إنّ تعـدّد القـراءات راجـع إلى قـدرة الخطـاب على التواصل بالإضافة إلى ما يتضمن من علامات ودلالات أسهم في تجليها وإظهارها مفارقة الخطاب للمرجع.

إنّ الحـديث عـن المرجـع يطـرح إشـكالية صـدق الخطـاب وكذبه، فـالقول بأنّ الخطاب يعود إلى واقع ما وبأنّ هذا الواقع يمثل مرجعه يعني أننا نقيم بالفعل علاقة صدق بينهما وأنّنا نخول لأنفسنا إخضاع الخطاب الأدبي إلى امتحان الحقيقة أي سلطة الحكم عليه بالصواب أو الخطأ، والواقع أن الخطاب الأدبي لا صدق فيه[2]. لأن المرجع الخطابي أو النصي كامن في التحولات المعجمية التي تطرأ على معطى دلالي ما، ولا يكون المرجع في الخطاب إلاّ مرجعا كلاميا، وهو بهذا يلغي إحالة الكلمات على الأشياء ويعوّضها بإحالة الكلمات على جهاز كلمات أخرى أو جهاز دلالي يستوي خارج الخطاب في سياق ما يدعى بتداخل الخطابات أو التناص وما يشتمل عليه من أنواع ومستويات.

1 أنور المرتجي، سيميائية النص الأدبي، جامعة دمشق المكتبة الإلكترونية، 2009، ص36.

2 عبد الله ابراهيم، الفكيك الأصول والمقولات، ط1، عيون المقالات، المغرب، ص36.

2- تداخل الخطابات:

والخطاب بهذا المعنى هو نتاج تفاعل خطابات لا حصر لها، ومرجعه الأساس هو خطابات أخرى سابقة، وليس الواقع المادي كما هو خارج النص أو الخطاب.

فالخطاب الأدبي قائم على التجدد بحكم مقروئيته، وقائم على التعددية بحكم خصوصية عطائه تبعا لكل حال يتعرض لها وجوده في اللغة، ولذلك كان لمادته وجود قبل تكوينه في الصورة التي هو عليها أي قبل صوغه في هيئته البنيوية والوظيفية. فمادة الخطاب لها وجود سابق بحكم تداولها بين أفراد القوم، وتعبيرها عن أغراضهم، واستعمال الخطاب الأدبي اللغة لتحقيق وجوده دليل على شراكته مع غيره من الخطابات في استعمال المادة نفسها، وهذا كفيل بإحداث التماس بين الخطاب المنجز اللاحق والخطابات السابقة عليه

والخطابات في تداخلها وتظافرها يمكن أن تتعدد بتعدد الوظيفة والبنية التي تتشكل في سياقها، وقد درست ظاهرة تداخل الخطابات Interdiscours في مباحث التناص Intertextualité، ولكننا نفضل استعمال مصطلحات نقترحها في هذا المجال ونحدد تحديد مفاهيمها، لاحقا وهي أنماط وأنواع ومستويات.

أ- وأهم الأنماط هي:

المخاطبية، والميتا خطاب، والخطاب اللاحق، ومعمارية الخطاب.

ب- و أنواع تفاعل الخطابات هي:

التداخل الخطابي الذاتي، والتداخل الخطابي الجماعي.

التداخل الخطابي العميق والتداخل الخطابي السطحي.

ج- مستويات التداخل الخطاب فهي:

تداخل عام وتداخل خاص.

ج- أشكال التداخل الخطابي:

التداخل الخطابي العمودي، التداخل الخطابي الأفقي، التداخل الخطابي الآني، التداخل الخطابي الزمني

3- مكونات التداخل الخطابي:

أ- أنماط التداخل الخطابي:

- المخاطبية Paradiscours.
- الميتاخطاب Metadiscours.
- الخطاب اللاحق Hyperdiscours.
- معمارية الخطاب Archidiscours.

ب- أنواع التداخل الخطابي:

- التداخل الخطابي الذاتي inrerdiscours subjeshf.
- التداخل الخطابي الجماعي interdiscours collective.
- التداخل الخطابي العميق interdiscours profound.
- التداخل الخطابي السطحي interdiscours externe.

ج- مستويات التداخل الخطابي:

- التداخل الخطابي العام interdiscours commun.
- التداخل الخطابي الخاص interdiscours spécifqve.

د- التداخل الخطابي العمودي:

- التداخل الخطابي الأفقي interdiscours horizontal.
- التداخل الخطابي الآني interdiscours synchnonigve.
- التداخل الخطابي الزمني interdiscours diachronigve.

4- الخطاب الأدبي انزياح:

وإلى جانب هذا، الخطاب الأدبي الانزياح عن النمط التعبيري المتواضع عليه، وهو خروج عن السنن اللغوية، ومن هنا فإنّ الانزياح يعدم الوظيفة المرجعية للدوال في الخطاب الأدبي ويحدث في المتلقي خيبة (انتظار)، وإذا كان الخطاب الأدبي انعكاسا من درجة ثانية: (لذلك فأيا تكون أغراض

الدراسة فإنّ نقطة البدء فيها لا يمكن أن تكون شيئا آخر غير النص)[1]، والانزياح يحدث من خلال تحقيق الوظيفة الشعرية في الخطاب وتتجلى خصائص الانزياح من:

1) طبيعة الفارق بين النثر والشعر وهي لغوية أو شكلية وهذا الفارق لا يكمن في المادة الصوتية ولا في المادة الإيديولوجية بل يكمن في نمط خاص من العلاقات التي يقيمها الشعر بين الدوال والمدلولات من جهة وبين المدلولات من جهة أخرى.

2) يتسم هذا النمط الخاص من العلاقات بالسلبية، إذ أن كل واحد من المقومات والصور التي تتكون منها اللغة الشعرية والمخصوصة بتميزها هو طريقة تتنوع المستويات لخرق قانون اللغة العادية[(2)]، ومن خلال ذلك يبدو الانزياح واقعة كلامية تشكل انحرافا عن النظم الرمزية للسان، وإذا كان ذلك، فالانزياح يشكل نظاما رمزيا فرعيا في النظام اللساني الأصل، وهو نوع من الخروج عن الاستعمال المألوف للغة، ومفارقة لكل ما هو عادي ومستهلك من الكلام، فالانزياح يمثل اللامنتظر من الخطاب، وكلما كان ذلك أكثر بروزا في

1تودروف، الشعرية، توبقال، المغرب، ص34-35.

2ميخائيل باختين، مسألة النص، الفكر العربي المعاصر، عدد 36، سنة 1985م، لبنان.

السياق البنيوي والوظيفي للخطاب كلما تمكن الخطاب من الأدبية.

5- المعنى ومعنى المعنى:

اللغة في الخطاب هي أساس المعنى ومعنى المعنى، واللغة نظام من الإشارات التي تعبر عن الأفكار، وإن استقراء الظاهرة اللغوية دعا الباحثين إلى اشتقاق بعض الثنائيات عدت مرتكزات أساسية في البحث اللساني الحديث وأهمها:

اللغة والكلام، التزامن والتعاقب، الدال والمدلول، وعلاقات التتابع، وعلاقة الترابط، وهذه الثنائيات سهلت العملية الوضعية الاستقرائية للظاهرة اللغوية وضبطتها[1].

واللغة بوصفها خاصية إنسانية وطريقة لإيصال الأفكار والتعبير عن الانفعالات والرغبات بواسطة نظام من الرموز المنتجة على نحو اختياري، (بيت الوجود)، و(لا يمكن أن يرى الوجود إلا من خلالها)[2]. وباعتبار أن كل ما في الوجود علامات، وعلامات الوجود تتحدد للكائن الموجود إذا استبينها، وتنطلق إذا استنطقها، ولا تعبأ بمن لا يعبأ بها، فهي صامتة ناطقة

1 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد أولي، ومحمد العمري، ط1، دار توبقال 1986م، المغرب، ص191.
2 عبد الله ابراهيم، التفكيك، ص8.

كالإنسان صامت كتيم وناطق مبين، فاللغة، بهذا المعنى ضرورية الوجود لتعدد ضرورتها، والكتابة عن الوجود في الخطاب هي إعادة لصوغ الوجود[1].

إن إنتاج المعنى لا يكون بسبب تقرير الدوال بمدلولاتها وإنّما يكون من تعارضاتها المتواصلة ومن تناقضاتها ليس على المستوى النحوي البنائي ولكن على المستوى الوظيفي، وبقدر ابتعاد الدوال عن مرجعياتها في سياقاتها الأدبية المتنوعة والمتعددة، بقدر ما تتمكن من تحقيق أدبية الخطاب وإثارة المتعة والإدهاش في التلقي، ومن هذا المنطلق، فإنّه لا يمكن الوصول إلى معنى محدد أو الوقوف النهائي على قصد مضبوط وقطعي ويقيني

إنّ إنتاج المعنى حقيقة قائمة ما دامت الدوال محدودة المدلولات متعددة في الخطابات الأدبية، وإن معنى المعنى لا يمكن إدراكه بصورة نهائية وبخاصة إذا كان الخطاب الأدبي مشكلا تشكيلا غرائيبا عجائيبا يخرج عن المعيار وعن المألوف في لغة التواصل النفعي والاستهلاكي واليومي إلى نظام غير مألوف وتشكيل غير معروف

1نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، مجلة الكتاب العربي، مجلة فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، السنة التاسعة عشرة، العدد (51-52)، حزيران، 2001م، ص175.

أنّه لا يمكن ضبط الشروط التي بواسطتها نتلقى المعنى ضبطا نهائيا أو تحديدها كليّا، ولعل تعدد المعاني يعود إلى تعدد السياقات وقد يعود إلى غموض السياق كما يعود إلى ما يكتنف الخطاب من صنعة غارقة في الإيهام

إنّ المعنى في الخطاب الأدبي لا ينطوي على خاصيته المحددة إلاّ ضمن السياق الكلّي للخطاب، ويتشكل هذا المعنى باتجاه جميع المعاني الفرعية والجزئية إلى هدف أو قصد تريد تحقيقه في رؤية كلية منسجمة، ومع ذلك يظل المعنى الكلي غير مدرك بشكله النهائي، ولكن يدرك المعنى المتوقع حصوله من خلال شكله غير المحدد، وذلك يحدث إذا ما كرسنا الانتباه على العلاقات الرابطة للبنى النصية[1].

ويزداد المعني غرابة وهجرة إذا اقتربنا من كثافة الخطاب، لأن طاقة الشحن الدلالي فيه مكثفة، وسمة الشفافية فيه مخففة، وبذلك كانت قراءة الخطاب الأدبي قراءة منفتحة فهي تشكل سننها الخاصة بها، وتؤطر نظامها، وفق اتساع المعنى ذاته، وتبنى نظاما من خلف نظام، وتكشف معنى من خلف معنى.

1 عبد الله ابراهيم، التفكيك، دار الكتاب الجديدة بيروت، 1999، ص74.

وتؤسس نظامها وتقيم دعائمه ومرتكزاته لتخرج من مجاهل لا دال فيها ولا دليل، إلى ما يتغياه الخطاب من متعة وفائدة.

6- كينونة الخطاب الأدبي:

إنّ المعنى ومعنى المعنى في الخطاب الأدبي، هو سر كينونته وهو أساس مكوناته، لذلك كان البحث عن هذا السر هدفا من أهداف القراءة، وكانت القراءات المتعددة للخطاب الواحد دليل التمتع وعدم الإباحة بالمكنون ودليل الإعراض عن القراءة الواحدة مهما كانت كفائتها، وهذا الفعل أغنى التجربة النقدية وثمن الصنعة الأدبية. وإذا كانت الظاهرة اللغوية خاصة خادمة للإنسان في نشاطاته وصناعاته المتعددة المتنوعة فقد تلونت بحسب هذه النشاطات والصناعات وخصّت كلّ حقل من اهتمام الناس المعرفي أو سواه بجملة من الألفاظ والمعاني وكانت لها رموز تعرف بها وتميزها من سواها... فـ "المعاني القائمة في صدور الناس المقصورة على أذناهم والمختلجة في نفوسهم والمتصلة بخواطرهم، الحادثة عن فكرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة وموجودة معدومة،... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما يبلغه من حاجات نفسه إلاّ ما ظهر منها، وإنّما يحيي تلك المعاني

ذكرهم لها وأخبارهم عنها، واشتمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهرا والغائب شاهدا والبعيد قريبا"[1].

وإذا كان المعنى سابقا على الإشارة، فإنّ الذي يجلي المعاني ويظهرها هو صوغها كلاما والذي يقربها من الإفهام هو التواضع والاصطلاح وإذا ما تخلخل قانون التواضع في الخطاب، فإنّ المعمول عليه في هذا السياق هو فاعلية المتلقي وإشراكه في إنتاج المعنى وصنعه، وهذه غاية يطمح إليها الخطاب الأدبي ويحقق من خلالها وظيفة التأثير في المتلقي ويثير انفعاله وتفاعله مع الخطاب.

7- الطاقة الإيحائية:

إنّ إلزام الخطاب بمسألة القصد الواحد تجعل الإشارة اللغوية فيه محدودة الأبعاد معاقة وقاصرة عن أداء وظائفها الجمالية والإنفعالية والشعرية وعليه فإنّ تجربة القراءات المتعددة للخطاب الأدبي تحرره من استبداد المواضعات اللغوية ومحدودية المرجعيات التوصيلية النفعية، وخرق النظام اللغوي في الصناعة الأدبية، هو مغامرة لتشكيل نظام

1الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للنشر و التوزيع، ص1-75.

خاص خصوصياته وله مكوناته، ولذلك كانت المراودة شرطا من شروط تجلية أبعاد الخطاب وكشف أسراره، وإظهار خفاياه، وهذا السبيل في التواصل هو لعبة موجهة يبرمجها الخطاب انطلاقا من نظام الكلمات التي تشكل كيانه وتقوم فيه علامات بارزة يهتدي بها المتلقي ليحقق شرط التواصل، وتحليل الخطاب يحتاج إلى مطاوعته ومراودته وتأمل مكوناته وتحسس تشكيلاته والاستغراق فيه حتى يؤدي وظائفه، ويعانق قارئه في حال من العشق اللانهائي وحال من الرّعش المطلق، فعلاقة الخطاب بقارئه ورد فعله واستنتاجه به تكون بقدر اهتمام القارئ بالخطاب وعدم الانصراف عنه إلى سواه، والاحتراز من إطلاق الأحكام المعيارية والتأويلات العشوائية عليه, فالخطاب يؤسس سننه كونه مادة لسانية لا يمكن تحليل نظام علاماتها تحليلا معزولا عن تشكيل هذه المادة بنيويا ووظيفيا.

ومن خلال ذلك يتأكد بأنّ اللغة أكثر أنظمة التعبير تعقيدا وأهمها في التعبير عن فكر الإنسان، وهي أكثر الأنظمة اكتمالا وملاءمة بما تحمله من ثراء في الدلالة، "وتكمن ميزة اللغة في أنها تشمل دلالة العلامات المفردة ودلالات الخطاب في وقت واحد، ومن هنا، تستمد قدرتها الفائقة على خلق مستوى ثان من القول، يمكن من صياغة قول دال حول الدلالة نفسها، ونجد

في هذه الملكة الميتا لغوية أصل علاقة التفسير التي تجعل اللغة قادرة على استيعاب الأنظمة الأخرى"[1].

فالخطاب الأدبي تميّزه طاقته الدلالية وهي تكثف المعنى فيه، وتجعله مفارقا لمرجعه، فلا تكون دلالته عادية لأنّه لا يلتزم بسمة توصيلية عادية، وإنّما يتلاشى فضاؤه في فضاءات لا حدود لها ولا مرجع له إلاّ ذاته، وتتشكل طاقة الإيحاء في الخطاب الأدبي بما يقع في نظام اللغة من اضطراب فيصبح هو نفسه نظاما جديدا، وطاقته الإيحائية بهذا المعنى هي حصيلة المفارقات التي تحصل في نظام تركيبه اللغوي، ومن هنا، يكون الخطاب مختلفا بدافع الرغبة في الإنشاء ومقروءا بدافع الرغبة في التواصل والاكتشاف

إنّ المعاني كلّها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وأثر من غير أن يحظر علي معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يجد في كل صناعة، من أنّه لابد من موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة والرفث

1بنفنيست، إميل، سيميولوجيا اللغة، ترجمة سيزا القاسم، ضمن كتاب أنظمة العلامات، مدخل إلى السيميوطيقا، الجزء الثاني، منشورات عيون المقالات، المغرب، ص27.

والنزاهة والبذخ والقناعة والمدح وغير ذلك من المعاني للشعر الحميدة أو الذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة[1] إن البحث عن المعنى ومعنى المعنى في الخطاب الأدبي هو حمل الظاهر على المحتمل المرجوع بدليل يصيره راجحا ويكون ذلك بالبحث في الاحتمال الذي يحتمله اللفظ أو الدال وتجاوز المدلول كما تحدده المعاجم لأنّ المعاجم تقيد المعنى وتحد من انطلاقه بينما السياقات الأدبية والأنساق الفنية والجمالية تمنحه فرصة للتمويه والاختفاء، والمتلقي مطالب بإدراك لمعنى المموه والمختفي وذلك ضرب من اللعب الجاد الذي يظهر المتلقي من خلاله قدرته على فك أسرار تقنيات لعبة الخطاب الأدبي.

8- تأويل الخطاب:

إننا في عملية التلقي نحاول البحث عن تطابق منطقي بين اللغة والعالم أو الواقع، وهذا بقصد إعفاء الذهن من التأويل البعيد والالتزام بعلاقة الكلمات بمرجعياتها والدوال بمدلولاتها، وإذا كانت اللغة التوصيلية العادية المباشرة تقبل هذا الربط بين الكلمات والأشياء على بعدها عنها، فإنّ هذا الضرب من

1 نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، مجلة الكتاب العربي، مجلة فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، السنة التاسعة عشرة، العدد (51-52)، حزيران، 2001م، ص177.

البحث لا يستقيم في لغة الخطابات الأدبية، لأنّها لا تقبل مثل هذا الابتسار لتصبح مفاهيم شرح منطقية، وذلك بحكم تشكيلها وتعدد معانيها، وعدم اتفاق مستويات التلقي بين الناس، وذلك لم يعد هناك سلطة للقارئ على الخطاب الأدبي وإنّما يفرض الخطاب سلطته في الصورة التي يريد، ويقدم نفسه في الصورة التي يشاء، ولذلك تكون قراءة الخطاب كما يقدم نفسه وإن اعتقد قارؤه بأنّه يقدمها كما يريد فلغة الخطاب في هذا السياق هي شبكة متباينة من المعاني وليس هناك قرينة ذاتية أو حلقة اتصال مباشرة بين المعبر والمعبر عنه، فكلمة سيارة أو طيارة أو باخرة، سواء كانت ملفوظة أو مكتوبة تجعلنا نستدعيها، وأثناء الاستدعاء تبدأ لعبة الأشكال والأحجام والأنواع والألوان وسوى ذلك

وهذا ما يستدعي توالد المعنى وانتاجه ليس على المستوى الإفرادي للكلمة فقط، بل على مستوى التركيب والسياق وما يحيط به، فالتلقي هو مشاركة فعالة في إنتاج المعنى وتوضيح نظام العلامات ونظام التشفير النحوي والدلالي والتداولي، لأنّ الأدب شفرة متفق عليها ضمن مستوى ما، لكن لا اتفاق بشأن أبعادها العميقة، ولذلك فتح المجال للقراءة لكشف أبعاد تلك الشفرة وتلك العلامات والسنن وتنظيمها وتحديد دلالاتها. ولم تعد هناك حقائق خارج اللغة، فبدأت الدراسات الحديثة وما

تفرّع عنها من مناهج كالبنيوية والأسلوبية والشعرية السيميائية تمركز جهدها وتمحوره حول عمليات الدال أكثر مما تولي البحث عن الحقيقة اهتماما، راحت تبحث في الأنظمة الدلالية للعلامات وكيفية تشكيلها وانتاجها للمعنى[1]، إنّ التأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى مرجوع يحتمله لدليل دلّ على ذلك.

إنّ النظام يؤطر المعنى في الخطاب مهدّد هو نفسه بسبب اتساع المعنى ذاته، وعدم إمكانية احتوائه إلى الأبد، ولهذا كان لابدّ من البحث عن كيفية يبدأ فيها رحيل المعنى إلى فضاءات أرحب غير خاضعة لسطوة النظام، وبالخصوص النظام اللغوي[2]. فتأويل الخطاب هو الاحتمال الذي حمل عليه داله ودليله، وللتأويل شروطه وحدود أشار إليها القدماء والمحدثون، وسنخصص لذلك مقاما خاصا نعرض فيه هذا الموضوع.

[1]عبد الله ابراهيم وآخرون، معرفة الآخر، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1990م، المغرب وبيروت ولبنان، ص32.

2وليام راي، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ترجمة يوئيل عزيز يوسف، دار المأمون، 1988م، بغداد، العراق، ص161.

9- سلطة الخطاب:

ومن خلال ما تقدم تترادف الأسئلة بحثا عن استقرار منهجي في تحليل الخطاب وتفكيك مكوناته وتحديد أبعاده ورؤاه... ومن بين هذه الأسئلة: هل للخطاب الأدبي سلطة على نفسه في جنسه؟ وهل للخطاب سلطان وسلطة على متلقيه مستمعا وقارئا؟ وإذا كان للخطاب سلطته على نفسه وعلى متلقيه فكيف يستمد سلطته على نفسه ويفرضها على متلقيه؟ إنّ الخطاب يحقق سلطته بتحقيق أدبيته في جنسه وبقدر هيمنة السمات الشعرية والأدبية فيه بقدر ما يحقق سلطته في جنسه وسلطته على قارئه. وذلك يتم بتحقيق وظيفته الانفعالية والتأثيرية بالإضافة إلى الوظيفة التبليغية حسب نظرية الإيصال ولا سلطة لمن لا شرعية له، وشرعية سلطة الخطاب تستمد من تشكيله اللغوي ومكوناته البنيوية والوظيفية ومن صنعته الفنية وأبعاده الجمالية ونسيجه الأسلوبي وما يحققه من انتهاك للسياق المتواتر والمحدود فيجسد نظامه وفق أنساقه العلامية، وهذا ما يجعل أدبيته علامة مميزة لتشكيل كلامه في بنية الخطاب وسلطة الخطاب على متلقيه لا تخرج عن تحقيقه لسلطته في ذاته وهي تملي على دارسه الاهتمام بالتشكيل اللغوي للخطاب، وتقتضي بتحليله تحليلا موضوعيا لمكوّناته الأسلوبية والبنيوية والوظيفية مع التأكيد على الفهم العميق

لفلسفة الظاهرة اللغوية في الخطاب الأدبي واللغة في سياق الخطاب تعيد إنجاز الواقع عبر إنجازه ألفاظا فجملا فنصوصا، وهي بهذا الفعل لا تقول الواقع وإنّما تقول واقعها الخاص بها، وتنتج معانيها التي تنشئها[1].

إنّ الدليل على سلطة الخطاب في متلقيه مستمعا أو قارئا هو استغراق المتلقي في الخطاب وتأثيره بما في الخطاب من طاقة سحرية وبيانية، وذهابه مع الخطاب المذهب الذي يأخذه إليه، ويضعه فيه، فلا يقاوم سحره، ولا يرد بيانه، وينتابه ضرب من الوهم، فلا يرى الكمال إلاّ فيه، ولا يرى جميلا إلاّ جماله، وتلك أشدّ أحكام السلطة الخطابية، فتترسخ حتى تشكل قناعة عند المتلقي فلا يجد فكاكا منها ومن تأثيرها، والمتعة أقل تحكما من السلطة.

سلطة الخطاب الأدبي لا تحصل إلاّ إذا فقد المتلقي سيطرته على آليات التحكم في الخطاب، وتمكن الخطاب من متلقيه تمكنا يباغته فيه ولا يترك له منفذا يتسلل منه إلى ما هو خارج عنه، إنّ سلطة الخطاب راجعة إلى إنبهار المتلقي بأنساقه، وإعجابه بمكوناته وانسجام بناه. وأن يمارس الخطاب سلطته على متلقيه معنى ذلك أنّه يوجّهه الوجهة التي يشاء، وفي

1 نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، ص178.

هذه الحال ليس غريبا أن يكون مأخوذا به مخطوفا بإيقاعاته، وذلك يشكل سرا من أسرار نظام الخطاب وما يتمتع به من مقدرة على تحقيق وظيفته الجمالية والتأثيرية، فالخطاب الأدبي يملك طاقة إغرائية عجيبة كما يملك قدرة على الإيهام فائقة فهو يوهم المتلقي باشتهائه ومن خلال ذلك يسعى إلى تعطيل آلة التمييز عنده، فإذا فرض الخطاب سلطته على متلقيه فهذه السلطة ليست لها ضوابط تحدّها أو قوانين تلتزم بقواعدها، بل هي سلطة فيها كثير من التعسف لأنّها تستأثر بجميع طاقات المتلقي التخييلية والموضوعية.

أمّا سلطة المتلقي للأعراف والسنن السائدة. والسائرة بين أصحاب الاختصاص، وعدم طواعيته لإغراءات الخطاب، وما يظهره من محاسن، وما يتزيّا به من أزياء أو يضع من مساحيق، وألوان أو ما يتموه به من تموهات، وسلطة المتلقي على الخطاب تكون بحضور الوعي والإدراك، وتكون بالنظر الموضوعي إلى جميع الخصائص التكوينية للخطاب الأدبي.

وتتفاوت الخطابات في تأثيرها في الملتقي بحسب نسيجها اللغوي وتشكيلها الشعري وقد يعود إلى ما يتضمن الخطاب من أبعاد أيديولوجية وقد يتعاطف المتلقي مع الخطاب لأنّه يعبر عن موقفه الأيديولوجي أو يخدمه من قريب أو بعيد عن موقفه

الأيديولوجي أو يخدمه من قريب أو بعيد وإذا نظر إلى خطاب ما نظرة موضوعية، هل يحدث في متلقيه أثرا ما؟ وهل يحقق سلطته؟ متى وكيف يحقق الخطاب سلطته ومتى تسلب منه هذه السلطة؟

إنّ النظرة الموضوعية للخطاب تحد من تأثيره على المتلقي المتخصص الذي نقصده في هذا المجال، لأنه أعرف بالمواقع التي كثفت طاقة الانفعال في الخطاب ومنحته القدرة على التأثير وعندما يمارس الخطاب سلطته فإنّه يخرج من طور الوسيلة إلى الغاية ومن طور المحدود إلى المطلق وفي اعتقادنا، أن كل ما ابتدعه الإنسان ما هو إلا وسائل يحقق بها جملة من الأغراض ويخدم بها جمعا من المصالح ويحافظ من خلالها على وجوده. وقد أدرك البحاثة العرب قديما هذه الخاصية في الخطاب الأدبي فعرفوه وقيدوه بالحرفة والصناعة، فهو عندهم كسائر الحرف والصناعات ومعلوم أن الصناعة يدرك سرها صانعها ويعرف مكوناتها وميزاتها وهو الذي يتحكم فيها فيشكلها كما يشاء، ويرتبها كما يريد ويوجهها الوجهة التي يحب ومن هذا المنطلق تنتفي سلطة الصناعة على الصانع والمستهلك

قائمة المصادروالمراجع:

باللغة العربية:

1) إبـراهيم صحراوي، في مفهـوم الخطـاب والخطـاب الأدبـي، مجلة الكتاب العربي، عددان (51-52) حزيران 2001م.

2) الجاحظ البيان و التبيين ,تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي للنشر و التوزيع.

3) أنور المرتجى ,سيميائية النص الأدبي جامعة دمشق 2009.

4) حسـين مـروة، علاقـة السياسـي بالأديـب في المجتمـع العربي، مجلـة الموقـف الأدبي، سـوريا دمشـق، اتحـاد كتـاب العـرب، العدد 171، 1985م

5) د. حمـدي حسـين، الرؤيـة السياسـية في الروايـة الواقعيـة في مصر، مكتبة الآداب للنشر والتوزيع، ط1، 1994م

6) عبـد اللـه ابـراهيم وآخـرون، معرفـة الآخـر، ط1، المركـز الثقـافي العربـي، الـدار البيضـاء، المغـرب وبيروت ولبنـان، 1990م

7) عبـد اللـه ابـراهيم , التفكيـك , دار الكتـاب الجديـدة بيروت 1999

8) كريستيان بايلون، الخطاب السياسي، تعاريف وأنماط التحليل، ترجمة لبوخ بوجملين، جامعة ورقلة، مجلة الأثر.

9) لطيف زيتوني معجم مصطلحات نقد الرواية , مكتبة ناشرون لبنان , 2008.

10) محمد خرماش، مفهوم المرجعية وإشكالية التأويل في تحليل الخطاب الأدبي، مجلة الكتاب العربي، مجلة فصلية تصدر عنه الاتحاد العام للأدباء، والكتاب العرب –السنة التاسعة عشر- العدد (51-52)، حزريان، 2001م

11) منذر عياشي، اللغة والأشياء، الموقف الأدبي عدد 244، دمشق، سوريا، آب 1991م

12) ميخائيل باختين، مسألة النص، الفكر العربي المعاصر، عدد 36، لبنان، 1985م

13) نور الدين السد، مفارقة الخطاب للمرجع، مجلة الكتاب العربي، مجلة فصلية تصدر عن الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، السنة التاسعة عشرة، العدد (51-52)، حزيران، 2001م

14) وليـام راي، المعـنى الأدبي مـن الظاهراتيـة إلى التفكيكيـة، ترجمـة يوئيـل عزيـز يوسـف، دار المـأمون، بغـداد، العـراق، 1988م

15) سـعيد يقطـين , تحليـل الخطـاب الروائـي (السـرد, الـزمن, التبئير) المركز الثقافي العربي الدار البيضاء , 2009

باللغة الفرنسية:

1. Fageur, Politics and Communication, little pronoun,1996.
2. J.F Lyotard, discours, Figures, Paris Klincksiek 1971.
3. Jacques Dubois, la sociologie de la littérature, in Methodes du texte, Paris 1987.
4. Karlheinz Stierle, Réception et fiction, poélique 39 (1979).
5. L. Hjehnslev, Prolégoménes à une théorie du langage, ed Minuit, Paris 1966.
6. Lucien Goldman, Structure minitales et création culturelles, Paris, Anthrepes, 1970.
7. M. Riffaterre, l'illusion référentielle, in littérature et réalité, ed du seuil, Paris 1982.
8. Mario valdes, de l'interprétation trad jean, cloude choul, en théorie (G.E), P. EF 1989.
9. Michel Adam, Linguistique et discours littéraire-L, Paris 1976.
10. Philippe Hamon, un discours contraint, In littérature et réalité (G.E), ed da Seuil, Paris 1982.
11. R. Jakobson, Essais de linguistique générale, ed Minuit, Paris, 1963.
12. Walfogang iser, l'acte de lecture théorie de l'effet esthétique, Bruxelle, Mordaga 1985.

فهرس

مقدمة..... 5
رؤى المحدثين لـ (الخطاب) ومناقشتها:..... 6
أولاً: مفهوم الخطاب:.....16
مفهوم الخطاب في الدراسات الغربية الحديثة:.....19
ثانياً: أنواع الخطاب:.....25
1- الخطاب السياسي:.....25
2- الخطاب الإشهاري:.....36
3- الخطاب الأدبي: 43
4- الخطاب الصحافي:.....46
وظيفة الخطاب الصحفي: 47
استراتيجية الإقناع: 47
ثالثاً: في مفهوم المرجع والوظيفة المرجعية.....49
1- مفهوم المرجعية في اللغة والأدب:.....49
2- بين الوظيفة المرجعية والوظيفة الجمالية في النص الأدبي:.....55
رابعاً: الخطاب الأدبي والروائي 69
1- القراءة والمقروء:.....71
2- تداخل الخطابات: 73
ج- أشكال التداخل الخطابي: 74
3- مكونات التداخل الخطابي: 74
أ- أنماط التداخل الخطابي:.....74

ب- أنواع التداخل الخطابي:.....75
ج- مستويات التداخل الخطابي:.....75
د- التداخل الخطابي العمودي:.....75
5- المعنى ومعنى المعنى:.....77
6- كينونة الخطاب الأدبي:.....80
7- الطاقة الإيحائية:.....81
8- تأويل الخطاب: 84
9- سلطة الخطاب:.....87
قائمة المصادر والمراجع:.....91
باللغة العربية:.....91
باللغة الفرنسية: 94